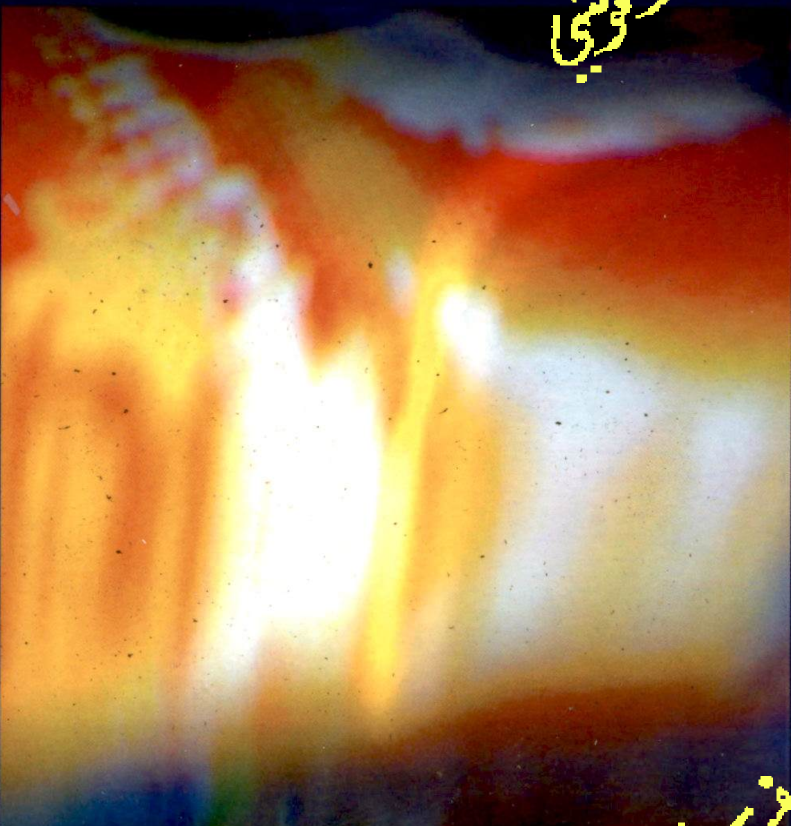
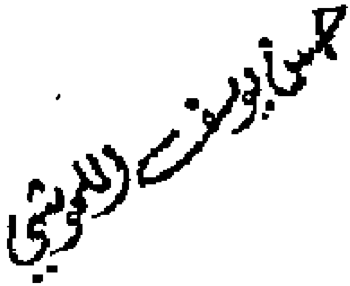
الشمس والدفء

قصص



يوسف محمد بالريش

مجلس الثقافة العام



متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

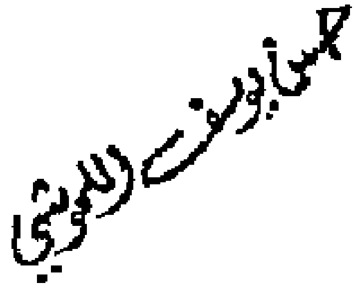
مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الشمس والدفء



إصدارات

مجلس الثقافة العام

الإشراف العام

أ . د . سليمان صالح الغويل

لجنة الإعداد والإشراف

ناصر الدعيسي

علي الفلاح

هليل البيجو

جابر نور سلطان

محمد عبد الله الترهوني

سالم أحمد الأوجلي

الشمس والدفء

قصص

يوسف محمد بالريش

الناشر

مجلس الثقافة العام

اســـم الكـتـاب	الشمس والدفـء (قصص)
اســـم المؤلـف	يوسف محمد بالريش
ســنـة النـشـــر	2008 م
رقـــم الإيـــداع	764 / 2008 م
الترقـيم الدولـي	978 - 9959 - 38 - 687 - 8

تصـميم الغـلاف	علي العباني
لـوحـــة الغـلاف	علي العباني
التنفـيذ الفـنـي	دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005 @Yahoo.ca

مقدمـــة

هذه السنابل

هـــناك كمــا هو معروف مفاهيم وتعريفات متعددة للقصة القصـــيرة كجـــنس أدبـــي محدد السمات، لـــه شروطه وأبعاده وعناصره الفنية التي يضيق المجال هنا لتحديدها، وتتبع مساراتها وفق ما تطرحه المذاهب والنظريات الأدبية بهذا الشأن.

ومـــع ذلـــك، وبغض النظر عن هذه السمات والعناصر والالـــتزام بهـــا من عدمه تبقى القصة القصيرة مع اتساع أفقها وتطـــور أشكالها، وصورها، وتحررها من أسر السرد والحبكة التقلـــيدية والـــرتابة والمباشرة، والخطابة ذات وظيفة اجتماعية وخطـــاب إبداعي يتبلور في الملاحظة والوعي والشفافية والحلم والقـــيم الإنســـانية، يستمد عناصره الأساسية من واقع الإنسان وقضاياه وهمومه ومن دورة الحياة بكل صخبها وتفاعلاتها، كما أنه يختزل في ذاته الحلم الإنساني بدءاً من أبجدية معلم المدرسة ونبضـــات قلـــب الأم إلى الحكاية المدهشة والخبر العادي، إلى حديـــث القلب وثرثرة سائق عربة الأجرة، وكل هذا وغيره من دون التخلـــي عن بهرجة الخيال وحميمية الشخصية القصصية

صعودها وصراعها وتأزمها إلى حد التوتر، والمواجهة واقتحام العالم المجهول، احتقان الأحلام والانزلاق إلى ما هو أبعد من صدى الظروف الراهنة، وصولاً إلى أفاق الاحتمال والتوقع والاكتشاف والمغامرة .

وهكذا فمهما قلنا عن براءة التجربة وحرية الفن، فإن ذلك لا يعني التفريط في قيمه وأهدافه ورسالته الاجتماعية، أو فصلها عن الحقيقة اليومية البعيدة المدى .

وفق هذه الرؤية تأتي هذه المقدمة التي لا غنى عنها في سياق مقاربتنا للمجموعة القصصية التي أسماها مؤلفها: "الشمس والدفء" فهذه المجموعة تشرع أبوابها دون قيود أو محاذير للمغامرة الفنية وروح التجريب والاكتشاف، وبما يتيح الفرصة للزهور كي تتفتح وللحلم الإنساني كي يسطع وللفن من أجل أن يكون أكثر التصاقا بكفاح الإنسان في بحثه المرير، عن قيم السعادة والحب والألفة والدفء، لكي يحقق وجوده ويحتوي عالمه بين يديه ليعيد تشكيله، وصياغته في صورة جديدة حافلة بالفرح والبهجة.

فمن البداية وفيما نحن نطالع هذه القصص موضوع الحديث نكتشف ودون جهد يذكر أننا نقف إزاء جملة من الحقائق

الموضـــوعية أشـــبه بالفرضــــية التي تحكم علاقة هذه القصص ببعضها البعض وتتواصل من صفحة إلى أخرى فتصبغ صورها وأحداثهـــا وشخوصها المنهوكين بصبغة حزينة، حتى أن بعضها يكتسب صفة غنائية هي أقرب إلى مرثية لآمال وأحلام ضائعة.

فالـــبكاء هـــو اللغـــة وهـــو الصـــوت الذي يحكم علاقة الشخوص بواقعها وبالعالم، وإن كان بكاءً إلى الداخل، ولذلك فهو بعيد كل البعد عن ضجة العويل وأنهار الدموع، هو بكاء تفرضه الحســـرة والمرارة وخيبة الأمل، بكاء الفقد والغياب وأحيانا يأتي في صورة تعاطف إنساني تفرضه اللحظة أو الموقف.

وقـــد نأخذ كمثال على ذلك قصة " ضغط الدم " فالعبارة الأخـــيرة فـــي هـــذه القصة تعبِّر عن خلاصة الألم والإحساس بالصـــدمة والـــيأس، ثم الانهيار والسقوط عندما لا يتبقى هناك بصـــيص من الأمل أو نقطة ضوء في الأفق :" ثم سمع قرقعة ســـقوط جســـده على الأرض، فيما صارت الدنيا تميد به، وبعد بـــرهة فاجأته يد رجل تمسك بمعصمه، أردفها صوت جهوري يقـــول : إنـــه ضـــغط الدم" غير أننا يجب أن نلاحظ أن مسألة الضـــغط هذه ليست كما تبدو لأول وهلة حالة مرضية عارضة لا تجلـــب لصـــاحبها ســـوى الشفقة، وإنما هي صورة أو وجه

لضغوط أخرى اجتماعية، ونفسية، وعصبية، تتوزّع على أبطال قصـــص المجموعـــة لينال كل واحد منهم ما يكفيه لكي يسقط متعـــثراً في الخطوة التالية ضغوط الفقر والحاجة وسراب خيبة الأمـــل والخـــداع والحـــيرة، والسؤال الذي من جمر وتوحش الآخريـــن، وأنانية الذين بيدهم زمام الأمور، والذين يملكون كل شـــيء وغـــياب العدالة كأنها سحابة عابرة، وهذه الضغوط هي أول المفاتـــيح التـــي يمكن من خلالها أن نمضي لتلمس وقائع وأحداث هذه النصوص وقراءتها من الداخل .

بذلـــك ترتســـم أمامنا بوضوح خطوط العالم النائي الذي حـــاول المؤلـــف تقريـــبه، واحتواءه في رؤية محددة نابعة من تجربـــته وملاحظاتـــه ومشاعره، فهو يمسك بكل الخيوط وقلما يفلـــت مـــنه خـــيط واحد فيما هو يمضي في طريقه متأملا في مراياه الكبيرة طبيعة الحياة من حوله وآمال الإنسان التي تتحطم وتنهار وتتوقف عن أن تكون امتدادا لغده الآتي، إنه يفتقد دفء الشـــمس ودفء العلاقات الإنسانية ويعلن بلا مواربة عن فساد الآخرين وفساد كل شيء .

وفـــيما عدا قصة : "غداً تزهر السنابل" التي تبدو مختلفة بعض الشيء فإننا نجد المؤلف الذي يرتدي ثوب الراوي يحصر

الوجـــود ويختزلـــه في أماكن وفضاءات محددة يندر أن تتغير داخـــل النص الواحد والذي يرتبط بهذا الواقع المأزوم مع بقية النصـــوص، فهـــناك دائمـــاً الشخصية المتوحدة والمنكفئة على نفسها، الأب الذي يعذبه أطفاله بسؤال الخبز والآخر الذي يبحث عـــن عمل والذي يبحث عن ذاته، ففي حالة "غداً تزهو السنابل" يصـــر بطـــل القصة على رسم ظل أخضر على امتداد الأرض البور ويرويه بعرقه إلى أن تظهر أول غيمه في السماء.

أمـــا رحلة الأحزان والآلام فتبدأ بقصة "الشيخ والعيد" عند انطـــلاق مدفع الإفطار في مغرب اليوم الذي بات من المتوقع أن يكـــون آخـــر أيام شهر الصوم، الشيخ يردد دعاء الإفطار، ولكن ليس هذا هو المهم، فهناك أطفاله وطلباتهم المشروعة.

قالت البنت :

- يا ربي، أريد فستاناً ألبسه وأظهر فيه كفراشة.
- أما الولد فقد قال :
- يا ربي، بذلة جديدة ألبسها وأظهر فيها كرجل كبير.

ومـــن خـــلال هذه الطلبات بالرغم من أنها تبدو بسيطة وعاديـــة في يوم العيد، فإن الأب يشعر بثقل مأساته وإحباطاته

لأنه لا يستطيع أن يجلب هذه الأشياء إلى أطفاله، فهو لم يستلم بعـــد معاشه الضماني، ثم إنه لم يتقاضَ درهماً واحدا منذ ثلاثة أشـــهر، وعـــندما يذهب إلى المصرف يحدوه الأمل في صرف رواتبه يفاجأ بعدم صرفها، وهكذا فلا عيد ولا أحد يفرح والوجه الآخر لهذه القصة يظهر في "لا أحد يبتسم" عندما تضيق الحياة بـــبطل القصة في بحثه عن عمل، وكما في نص "الرحلة فجراً" وهي أشبه برحلة إلى المجهول، فالشخصية في هذه القصة رجل عادي ولكنه يعاني مرارة البؤس، مرارة أن يعود إلى أطفاله من دون خـــبز، ثـــم يهبط عليه الحلّ من السماء عندما يسعفه بائع فطائـــر بدينارين يعينانه على فكّ أزمته، وتكشف بقية القصص عـــن هواجـــس قلق نفسي ووجودي كما في قصص "وردتان" و"شربت عيني" و"الألم الضاحك" وغيرها من النصوص.

وبين هذين الخطين المتوازيين ظاهرياً تقع نصوص "حقل الـــبوري" و"الصـــولجان" و"الخوذة" و"حتى يفتح الباب" وهو ما أنـــتج هذا العالم الذي هو مزيج من الخيال الجامح، والاستسلام لمرارة واقع لا فكاك منه.

خليفة حسين مصطفى

حقـل البــوري

المشهد الأول:

قــبل أن يختفي قرص الشمس المتوهج بلونه الأرجواني فـــي اللا مكان خلف البحر الممتد حولنا امتداد المدى عند قوس الأفــق كانـــت مراوح الطائرة العمودية تزيد من عدد دوراتها محدثـــة حــركة عنيفة للهواء تحتها، اقترب فني الصيانة محنياً ظهره، وأقفل باب الطائرة ثم ابتعد، في ذاتها اللحظة كنت ملتفتاً نصف التفاتة.. عن الطائرة محاولاً تفادي شدة الهواء الناتج عن حركة المراوح، ومع شدة قوة المراوح بدأت الشبكة المطروحة علـــى ســطح منصة الحفر تهتز بشكل واضح... فجأة ارتفعت الطائرة، وبمجرد أن أحسست هدوء التيار الهوائي نزعت خوذة الســلامة التــي كنت أرتديها ولوَّحت لركاب الطائرة مودعاً... عندها بدأ فني الصيانة يطوي الشبكة المطروحة تمهيداً لرفعها، بينما واصل قرص الشمس اقتفاء أثر خدره الذي أشّع في المكان رهــبة تغمـــر الكـــيان بقليل من الوحشة وكثير من الاطمئنان الممـــزوج بـــالخوف مـــن المجهول، ومن وقع حركة الغروب

استمدت خطاي خطوهما نحو جوانب منصة الحفر لتشهد عيناي زحف الظلام بهدوء ليبتلع دقائق النهار... ساد هدوء البحر المحيط الذي نسبح فيه وصار صوت الموج ينقر دعامات الحفارة (جلنار)... امتداد بصري الخاشع رصد ظهور كتل من السحب القادمة نحونا، تحملها ريح شمالية غربية. ينفثها شتاء في منتصف عمره وعنفوان شبابه عندها خاطبت صديقي الذي مازال يطوي الشبكة الغليظة، التي كانت تحتضن الطائرة المروحية قائلاً:

- أسرع يا (هانس) فالجو يشتد برودة، والرياح تدمدم في الأفق.

ردَّ هانس:

- حسناً، إنني قادم.

... انتظرت، (هانس) لحظات قبل أن نسرع الدخول إلى غرفة المراقبة الجوية. وحين دخلناها خلع صديقي خوذته وبدأ ينزل درجات السلم الحديدي المؤدي إلى صالة المطالعة ومنها إلى جناح الإعاشة والتلفاز فيما بقيت داخل غرفة المراقبة الجوية... اقتربت من جهاز قياس الضغط الجوي الذي كان مؤشره مستقراً عند الدرجة 72 درجة ضغط جوي. مما يعني أن الوضع الجوي متوازن نسبياً. لكَّن سحباً سوداء ظهرت عند

الأفق يحملها الريح نحونا بسرعة واضحة الأمر الذي آثار قلقاً غامضاً، وبعد هنيهة مددت إصبع السبابة الأيمن نحو زر مرتبط بجهاز للرصد الجوي يستقبل بثاً عالمياً حول الظروف المناخية في العالم، وما أن رفعت سبابة يدي اليمنى عن الزر حمل الأثير صوتاً متحشرجاً يقول: سرعة الريح عند جنوب البحر المتوسط خمسون عقدة... درجة الحرارة إحدى عشر درجة مئوية وزوبعة تحمل أمطاراً غزيرة تتجه صوب الجزء الشرقي منه... قلت في نفسي:- يبدو أننا سنواجه عاصفة ما إذا استمر هذا التغير المتتالي في سرعة الريح. فمنذ ساعة مضت كانت سرعة الريح خمسة عشر عقدة.

بينما عيناي ساهمتان نحو الأجهزة وأذناي تحاولان التقاط كل المعلومات دخل (هانس) فأسلمته متابعة قراءات الأجهزة ودلفت نازلاً نحو عمق الحفارة متجهاً نحو برج الحفر مروراً بصالة المكتبة والإعاشة. وعند ممر صغير مؤدي إلى برج الحفر استوقفتني المقهاة ومنحتني كوباً من قهوة ساخنة أنعشتني.

المشهد الثاني:

ولجـت غـرفة المراقـبة الرئيسية للحفار جلنار بأجهزة المراقبة وشاشاتها وأزرارها المتعددة الألوان والأشكال وبياض طلائهـا. كـل ذلـك إضافة إلى نظافتها وهوائها النقي المتجدد تنسـي الجالس داخلها إنها قائمة على دعامات معدنية تعبث بها أمواج البحر.

- أسعدتم مساء يا سادة .. تحية ألقيتها على الجالسين بها.
- أسعدت مساء .. كيف حال أهل البر.
- لا يسألون عن أهل البحر إلا عندما يشتهون السمك.
- البحر بالنسبة لهم سمك وسباحة.
- وبالنسبة لكم ؟ ؟ ؟
- وبالنسبة لنا ... عالم من الأخطار والأهوال.
- أتخشى الأخطار ؟ ؟
- أخشى المجهول دائماً.
- كلما تعمقناه ازداد غموضاً .. انظر .. وأشرت إلى الشاشة

أمام محدثي.

- ماذا هناك ؟ ؟

- ذلك الجسم السابح في هدوء .. أتعرف ما هو ؟ ؟

- لا ...

- كائن بحري هلامي سام من فصيلة القناديل البحرية.

- ألم أقل لك إن البحر عالم من الأخطار ؟ ؟

- نعم ... عموماً كيف تسير أمور الحفر ؟ ؟

- وصلنا إلى عمق ثمانية آلاف قدم.

- أمامنا ألفي قدم أخرى.

- أظهرت العينات الجيولوجية أن الطبقة السوداء تقترب جداً

- هـذا يعني إن توقعاتنا في محلها وحساباتنا مضبوطة أليس كذلك- يا سيد مارك؟؟

- وهل تأكدتم من سمكها؟؟

- الدراسات السيزموغرافية ستصلنا نتائجها بعد أقل من نصف ساعة... أثناء حديثي مع السيد (مارك) لمحت على الشاشة أنبوب التغليف يتأرجح في الهواء وبسرعة امتدت

يدي إلى لاقط الصوت بغرفة المراقبة.

- انتبه يا (يوهانس) الأنبوب يتأرجح بشكل غير طبيعي.
- على الطرف الآخر سمعت صوت (يوهانس) يقول:
- اسحب الأنبوب وأعد التثبيت.
- فرد صوت أحد العاملين قائلاً:
- حسناً يا سيدي..

ثم واصلت حديثي إلى (يوهانس) لقد تكررت الحالة ثلاث مرات خلال الأسبوع المنصوم.

رد (يوهانس):

- هل محدثي هو السيد خليفة.
- نعم .. أنا هو.
- لقد ارتحنا من ملاحظاتك القاسية مدة يومين.
- أرجو أن تكون الأنابيب التي ثبتت في محلها الصحيح!!
- بكل تأكيد لن تكون منحرفة فلقد تناولت ما يكفي من الشراب.

- ألم أنبهك إلى خطـــر السكر في مثل موقعك .
- ألم أقل لك إنني لا أعمل دون ثمالة؟؟
- المهم أن تنتبه لعملك ..

ثـــم مددت يدي إلى قدح القهوة وقلت لمارك:- هذا السكير العربيد لا يلتزم بقواعد السلامة وهو بذلك يعرض الموقع لخطر كبير.

اختفي الأنبوب داخل البئر النفطي وحتى يتم إلحاق التالي ظهرت الشاشة أمامي وقد غمرت المنطقة مجموعات من أسماك الـــرزام والـــبوري التـــي سمى الحقل باسمها لكثرة تواجده بها لتستأنف الأنابيب بطولة الشاشة.

المشهد الثالث:

فجـــأة اكتســـت الشاشة دفقاً من الاضطراب والفوضى، وتعكر صفو الماء فيما كان فأس الحفر يعمل بنشاط كبير وهمم الرجال تسرع الإيقاع لينتهوا من حفر البقية الباقية من الأعمال وليـــتوقفوا بعدها عند قشرة رقيقة قبل أن ينبجس الذهب الأسود من الأعماق ولكن الرياح ازدادت قوة أهاجت البحر حتى لم يعد مـــن المعقول الاستمرار في الحفر، لذلك قرعت الجرس إيذاناً

بالتوقف، وكان ذلك أسوأ قرار اتخذته في حياتي، فقد جاء قرع الجرس في لحظة أوشك معها أحد الفنيين تثبيت الأنبوب، ولكن إشـــارة التوقف شتتت تركيزه لذلك فقد دقة الانتباه حين سها في آخـــر ثانـــية مـــن عمله فما كان إلا أن فقد توازنه وطوحت به الأمواج في مكان مجهول من عمق اليم المتلاطم وتوقفت حركة العمـــل ولـــم يعـــد من الممكن البحث عنه قبل هدوء العاصفة الهوجـــاء التـــي كـــادت تطيح بكل الأشياء وخيم الوجوم على الوجـــوه التـــي هـــرب الـــدم مـــن سحناتها ولم يعد لغير النار المضـــطرمة في لفافات التبغ صوت رغم هدير الموج وصفير الـــريح فـــالموت صار مهيمناً بظله على المكان فيما طال زمن العاصـــفة الـــذي لم يتجاوز ربع ساعة حتى خلناه دهراً بأكمله وحيـــن نظـــرت إلـــى الساعة التي كانت بمعصمي تبين لي أن انتصاف الليل لم يحن بعد فما أطول ليل الملمات! وما أسهد نوم الجفون الخائفة!

المشهد الرابع:

حيـــن عـــادت الشمس من خدرها كانت الريح ترحل إلى مكـــان ما في المعمورة بينما خارت قوة الموج وبدأ يلفظ أنفاسه ولكن العيون المسهدة اكتست حدة البحث في المحيط المحيط بنا،

فكان أول عمل قمنا به هو النزول إلى أكثر من قارب في أربع مجموعـــات توجهـــت نحـــو جهات الدنيا الأربع بحثاً عن ذاك الشـــاب الـــذي حاول إنهاء عمله وقاوم حتى لحظة أطاحت به الأمـــواج والـــريح فابتلعه ظلام الليل الذي خيم على البحر ولم يتحرك فأس الحفر حزناً على الفقيد الذي لم نعرف مصيره لكننا مصـــممون علـــى البحث عنه الذي لم يدم طويلاً فبعد أقل من ســـاعة من بدء البحث بان لنا تحت قبس من نور الشمس جسماً يطفـــو ويغـــوص، فأسرعنا نحوه لنكتشف الرجل وهو متشبث بأنـــبوب الحفـــر الـــذي كان عازماً على تثبيته، وقد كانت قواه خائرة لدرجة ظننا معها أنه فارق الحياة، وحين اقتربنا منه فتح عينـــيه في هدوء وبطء شديدين وحينها تأمل وجوهنا هنيهة ثم قال:- لا تخافوا فلن أموت قبل أن نكمل الكشف عن ذخائر هذا البحر وعاد إلى غيبوبة ظننتها موتاً لكنه ابتسم لنا وأشار بسبابته بالرفض عندها تأكدنا أن حياته ستستعيد دفقها من جديد.

الـــخـــوذة

المشهد الأول: في مدينـة السلام.

امتداد الأرض البهية اللانهائي يزدان بنور الربيع المبرقش بـــالألوان الذي يحيل الفسيفساء اللونية ذات الاخضرار المحتوي للـــزمان والمكـــان.... اللوحة مرسومة بالحب والخير والنماء... الفلاحـــون يجهـــزون أحـــواض شجر اللوز والزيتون والرمان والنخـــيل باســـق الطلـــع وخلايا النحل تتقاطر العسل الزعتري والربيعـــي والجبلي... ثغاء الشياه وزقزقة العصافير يعزف نغم التسبيح لله والفرح بالموطن...

الـــبحر المشـــاطيء للمراعي الخضراء والمزارع البهية يـــزدان بلونـــه المـــزرق وسميكا ته الفرحة وأسماكه ألوا دعة ومراكـــب الصيد تدرعه جيئة وذهاباً لتعب من خيرة الوفير... الإنســـان في هذه المدينة يبني الحلم الجديد بالغد السعيد ويستمد شـــموخه مـــن الرواسي التي تحتضن حياته وتشمخ بها وفوقها كتب الأطفال (المعرفة حق طبيعي... نحن الأعظم نحن نؤمن بالله).

ملحمة م ط

مأساة ن ط

المشهد الأول الموازي: دولة الحرب.

مربعات سوداء تسيج بقع خضراء

من عشب رمادي اللون والفعل....

مرابض طائرات وآليات عسكرية لخدمة النعوش الطائرة القاذفة.. السماء يشوبها لون رمادي والهواء تخنقه أبخرة الطائرات.. أرقام كتبت على النعوش وكتبت على ممرات الهبوط والإقلاع وصارت رمزاً لكل شيء حتى الإنسان في هذه الدولة التي تبني الطائرات وتعبئها بأطنان البارود لذلك صار اسم كل طائرة " نعش طائر".. وفوق أسوار القاعدة العسكرية كتب عسكري مهزوم عبارة "دعه يعمل.. نحن الأقوى.. نحن نثق في الله".

المشهد الثاني: في مدينة السلام.

أفلت الشمس وازدانت السماء بالنجوم وضوء القمر وهجع الناس إلى مضاجعهم فساد الهدوء والاطمئنان الشوارع المضاءة بلون متوهج بالحب وساد السلام مدينة السلام وفوق تلة مرتفعة انتصب مدفع مضاد للطائرات يمارس نوبة الحراسة الروتينية يربض فوقه العريف عبد القادر.

المشهد الثاني الموازي: في دولة الحرب.

آمــر القــاعدة العســكرية ذات المربعات السوداء استقل سـيارته العسكرية نحو غرفة قيادة العمليات وحين وصلها دلف إلـى صـالة اجتماعات... الطيارون قاموا بأداء التحية فردها عليهم واتجه صوب خريطة العالم.

و أشار بعصاه إلى موقع مدينة السلام وقال:

- هـذا هو هدفنا طرابلس وبنغازي.. . لابد لكم أن تنتصروا لكـي نمحو العار الذي الحقه بنا (الرايس) مراد وجماعته حينما ساد بأسطوله البحر.. . هل من استفسار؟

رفع طيار يده فقال له الآمر:

- تفضل.

رد الضابط وهو يتحسس خوذته إلى جنبه قائلاً:

- لماذا نقصفهم بهذه الأطنان؟

احمــر وجـه الآمر وارتعشت أطرافه وشفته العليا وقد أحس بصدمة السؤال:

- لأنك ستقبض ثمن العملية الآن.

وبحـــركة سريعة من يده أشار إلى ضابط بجانبه فأحضر حقيـــبة علـــى الفور وفتحها فكانت مليئة برزم النقود التي كتب عليها عبارة (نحن نثق في الله).

المشهد الثالث: في مدينة السلام.

الـــنعوش الطائرة تغطي سماء مدينة السلام على ارتفاع مـــنخفض وقـــد أثـــارت محـــركاتها أزيزاً مزعجاً أيقظ الناس والعصافير وامتلأت المدينة بالغبار...

العـــريف عبد القادر أسرع بكل قوته نحو رفيقه (م ط) ووجهه صوب النعوش الطائرة وهلل – الله أكبر.. الله أكبر.

ثـــم أرسل شعاعاً نورانياً من قذائف مضاد الطائرات.. . ومـــا هي إلا لحظات حتى بدأت النعوش تتهاوى.. حين اشرقت الشمس بدفئها نزل إلى شاطئ البحر فتوضأ بمياهه باشر صلاة الصبح وحينما أفشى السلام على الملاك الأيسر لمح خوذة تطفو فـــوق ســـطح اليم فقام نحوها مسرعاً وقد أعد مسدسه لمواجهة احـــتمال مواجهة أخرى.. لكن الجثة التي كانت تحملها الخوذة كـــان المـــوج يـــتقاذفها حتى أوصلها تحت قدمي العريف عبد القـــادر.. . تـــأمل الوجه.. . بشعاً كان.. . مهترئاً بفعل هجوم

الأســماك وميــتا تكتســيه صفرة الموت.. . انحنى عبد القادر وحمل الجثة ثم وضعها على الشاطئ الرملي.. . أزال الخوذة.. . مــد يــده نحو جيب الرجل ليلتقط منه اللوحة الرقمية المسماة باســمه فوجــد الجيب منتفخاً وحين فتحه وجد به رزمة أوراق نقدية كتب عليها (نحن نثق في الله)...

غطــى الجــثة بدثاره واتجه نحو صخرة مشاطئة وكتب عليها 16-4-86 ف.

الشيخ والعيد

انطلـــق مدفع الإفطار فامتدت يد شيخ في العقد السادس مـــن عمره والتقطت حبات من التمر وردد دعاء الإفطار ثم دفع بحبات التمر الثلاث إلى فمه بشكل تتابعي... امتدت أيدي أربعـــة أطفال أكبرهم لم يصل الخامسة عشر من عمره نحو طبق التمر... الأم وضعت إبريق الشاي أمام زوجها وأبنائها ثـــم انتبذت ركناً قصياً من الحجرة وعلى إيقاع حركة المضغ ران الصمت على رؤوس أفراد الأسرة.

انـــتهى طعـــام الإفطار وانتهت دقائق الأكل والشرب فقام الشـــيخ وصلى ركعات المغرب الثلاث إماماً لأسرته الصغيرة... كـــرت المسبحة بين السبابة والإبهام تسعاً وتسعين مرة ثم اعتدل الشـــيخ في جلسته بعد اتكاء... اقتربت بنت الشيخ الكبرى والتي مازالـــت في العام الثامن من عمرها... همست في أذن أبيها فهز الشيخ رأسه إيجابياً:

- حاضر يا ابنتي.

اقـــترب أصغر الأولاد وهو في الخامسة من أبيه وهمس في أذنه، فهز الشيخ رأسه إيجاباً:

- حاضر يا ولدي.

البنت الصغرى عمرها أربع سنوات رسمت بسمة مرحة على ثغرها ونظرت إلى أختها ثم إخوتها فأمها، وبعدها دنت من والدهـا الشيخ وهمست في أذنه... هز الشيخ رأسه بإيجاب ثم استوى في جلسته وأجابها:

- غداً إن شاء الله سأشتري لكم ملابس العيد... ثم توقف عن الكـلام واعـترته حالة تعرّق فيما اهتزت عضلات وجهه وشفاهه ثم سكبت عينه دمعة داراها عن أبنائه وقال بصوت متهدج:

- غداً سأشتري لكم ملابس العيد.

أطـل المذيـع عـبر جهاز التلفاز غير الملون الذي كان يجلـس أمامه الشيخ.. وجّه المذيع بياناً إلى المشاهدين حثهم فيه على تحري رؤية هلال شوال ثم أردف قائلاً:

- الجو ربيعي هذه الليلة وقد لا تغم رؤية الهلال ننبئكم بقرب حلول عيد الفطر.

بينما كانت الأسرة تتابع البيان بصمت، رفع الشيخ رأسه ويديه وردد في سريرته:

اللهم لا تجعل العيد غداً.. اللهم أجّله يوماً آخر.

تفاهة برامج الإذاعة أضفت على الأسرة حالة من الوجوم فانــزوى الشيخ مسبحاً وانصرفت الأم لغسل الأواني بماء مالح بينما خرج الابن الأكبر إلى الشارع ليلعب مع أترابه أمام البيت القديــم بالحــي الشــعبي الــذي تسكنه الأسرة.. البنت الكبرى أخرجــت كتــبها ودفاتــرها وانطرحت أرضاً تكتب واجباتها المدرســية.. . الولــد الصغير والبنت الصغيرة وجداً في اللعب المشترك هروبا من الملل وبينما هما يلعبان.

قالت البنت:

- يا ربي أريد فستاناً جميلاً ألبسه وأظهر فيه كفراشة .

أما الولد فقد قال:

- يا ربي أريد بدلة جديدة ألبسها وأظهر فيها كرجل كبير.

الشيخ كرر التسبيح وردد بصوت عال:

- اللهم سترك وعفوك ورضاك يا رب.

فجــأة توقّــف الــبرنامج التلفزي الركيك الذي كان يقدم مســابقة ركيكة معلوماتها أكثر ركاكة توقفت المرأة عن غسل الأواني وجاءت مهرولة.

توقّف الشيخ عن التسبيح أحسّ بأنفاسه تضيق كأنما يصّعد في السماء ثم ردد في سريرته دعاءه:

اللهم سترك يا رب

تكلّم المذيع فأعلن عدم ثبوت رؤية هلال شوال وأكد للمشاهدين أن اليوم التالي هو آخر أيام شهر رمضان المعظم... فرح الشيخ وتهللت أسارير المرأة بينما تسائل الإبن الأصغر:

هل العيد غداً؟

أجاب الشيخ بقوة الواثق من نفسه وبفرح تهللت بسمة منشرحة على شفتيه قائلاً:

العيد بعد غد.

البنت الصغيرة أردفت في إحتجاج طفولي:

ليت العيد غداً

توجّه الشيخ ببصره نحو السماء

الحمد لك يا رب إذ سترتني...

اليوم الأخير في شهر رمضان والصباح الربيعي يستهل يومه بدرجة حرارة تجمد أطراف المصابين بفقر الدم والفقراء..

لكـــن دفـء الأمـــل في الفرح بالعيد أنسى الشيخ برودة الطقس وجعلــــه يســـري راجـــلاً نحو المصرف.. لم تكن المسافة بين المصرف وبيت الشيخ تتجاوز بضع كيلو مترات.. قطعها الشيخ رغم آلام المفاصل والروماتيزم الذي كان يهشهش عظامه وعند الســـابعة والنصـــف صـــباحاً كان الشيخ أمام المصرف.. وجد شرطياً محتمياً بباب حديدي وعلى وجهه آثار نوم لم يكتمل ولم يكن مريحاً ... إلى جانب الشرطي وجد أحد موظفي المصرف مازال النعاس مثقلاً لجفنيه.

السلام عليكم صباحكم بالخير.

- ولماذا هذه السروة؟

رد الشرطي متعالياً، أما الشاب الموظف فقد رد متثائباً:

- صباح الخير يا حاج.
- الساعة قداش تفتحوا ؟؟
- الثامنة والنصف.
- الحمد لله.

ثم جلس القرفصاء وبدأ التفكير في شيء ماء يهرش شعر رأســـه الأشيب مزيحاً بحركة يده طاقية بالية كان يرتديها نحو

الخلف.. تساقطت رخات من المطر ... تطلع الشيخ إلى السماء حـــامداً الله علـــى نعمـــة المطر، سائلاً الستر.. ازدادت رخات المطر وزاد البرد فقرب الشيخ راحتيه من فمه ونفخ فيهما هواء الزفير طامحاً منحهما دفئه.. ثم بدأ يتأمل القادمين والعابرين..

الساعة الثامنة إلا ربع شهدت حضور عدد من الموظفين كما استقبلت وصول عدد من الزبائن، وبينما كان الشيخ منهمكاً في تدفئة راحتيه.. أحس بصوت وقع أقدام كالحفيف وحينما هم بالالتفاف نحو مصدره سمع صوتاً أُنثوياً يردد:

صباحكم بالخير...

كـــان الصوت لامرأة ملتحفة أخفى اللحاف كل شيء عدا تجاعـــيد وجـــه بلون الحنطة غادره الجمال ويتميز بوشم على الذقن وجلست المرأة قرب الشيخ قائلة:

صبحك بالخير يا حاج.

صباحك بالخير يا ولية

رد الشيخ بينما تقرفصت المرأة إلى جانبه ثم سهمت تفكر في شيء ما وفجأة سألت الشيخ.

يا هل ترى جابوا المعاشات.

الله أعلم.

أجاب الشيخ دون أن يلتفت إلى جليسته..

أبواق سيارات تمر بين الفينة والأخرى وفي كل لحظة يزداد طابور المتقرفصين والواقفين.. نظر الشيخ إلى السماء وكذلك فعلت المرأة.. ونظر كثيرون آخرون إلى السماء على أمـــل أن تســـتجيب الســـماء للدعـــوات السرية الصادرة عن الصـــدور المكلومة والمكلولة.. وبينما الجميع يمارس حواراً ذاتياً أصدرت مصاريع باب المصرف صريرها..

وبسرعة الأمل تدافعت الأقدام إلى الداخل وتكدس الرجال والمرأة أمام شباك قبول الصكوك بينما بعض موظفي المصرف مـــازال يمـــارس حديـــثاً ودياً لا يخلو من الضحك والابتسام.. ازدحمـــت صـــالة المصرف بالمريدين.. القابضين والمودعين والراجين قبض معاشاتهم ولشدة الازدحام وتتابع أنفاس الخوف والترقـــب صارت صالة المصرف أشبه بفرن، وفي هذا الأثناء اقـــترب الشيخ من شباك قبول الصكوك بعد أن غادر عدد من الحاضـــرين فرحيـــن بما أوتوا من مال، وبينما كان الشيخ يهم بـــتقديم صـــكه لاحـــظ المرأة الوحيدة ذات الوشم تنتظر إنفكاك طـــابور الـــرجال، فأفسح لها المجال وبذلك منحها أسبقية تقديم

الصك... استلم الموظف صك المرأة ونظر إلى رقم حسابها ثم أجابها بشكل صاروخي.

- معاشات المساعدات الاجتماعية ماوصلتش.
- لكن ليها شهور.
- لم تصل ولن تصل اليوم.

بهتت المرأة وأصفر وجهها.. لم تقل سوى دمعة انحدرت من عينها اليسرى وكفكفتها بسرعة ثم انصرفت صوب الخارج.

لا حول ولا قوة إلا بالله..

قال الشيخ ذلك ومدّ يده المعروقة بصك مبهور مبصوم.. استلم الموظف الصك واستدعى حساب الشيخ حاسوبياً فتحركت الشاشـــة بلقطاتها المتتالية ثم توقفت عند حساب الشيخ.. تتابعت نظـــرات الموظـــف بين وجه الشيخ وشاشة الحاسوب ثم أرجع الصك إلى الشيخ:

- آسف يا حاج المعاش ماوصلش.
- لكن غدوة العيد.
- ما باليد حيلة.

ثلاثة شهور انتظر الفرحة بالمعاش.

لكنها لم تصل وحسابك لا يرصد درهماً واحداً.

غير إتأكد يا ولدي.

- ما فيش يا حاج.

حتى أربعين أو خمسين ديناراً؟؟

حتى درهم واحد ما فيش.. آسف يا حاج.

- هذا ظلم.

صرخ الشيخ ووقع مغشياً عليه فيما ساد صالة المصرف هرج ومرج بينما رددت بعض الألسن:

- لا حول الله.. لا حول الله.

((انتهت))

النخل والصبار والبحر

(1)

النخل والبحر... والصبار بينهما... يحن الصبار للبحر فيتقدم بحذر شديد وشوق ... بخوف وسرور ... يقطع مسافة الحلم وجلاً .. .. يحس نشوة الاستحمام في الأزرق الصافي.. .. تتبدى له نجمة بحرية تمتطي فراش الرمل الناعم، يمد يده نحوها فتندفع من أسفل إلى أعلى لتغفو بين أصابعه.... تبتسم نجمة البحر للصبار وتخاطبه بحنان:

- هاأنذا بين أناملك

  مرحى أيتها الفاتنة.

- وألف مرحى أيها المتيم.
- تلبس الشوق كياني.
- أرّقني افتقاد ملمس كفك الخشن.
- أتحبينه حتى الأرق؟؟

- و أكثر من ذلك..
- ....
- تبدو حزيناً
- وتائهاً..
- أناملك مصفرة اللون.
- حبر الصبار تجمد خوفاً.
- ممن؟؟
- من أشواك النخل.
- فجـــأة استفاق من حلمه اليقظ حين أحس برودة ظل النخل.. .. وإذ رفع رأسه عنفه النخل حانقاً:
- هل كنت تحلم ؟؟
- نعم.
- بما؟؟

.... لم يتكلم الصبار، لكن ملامحه فضحته حينما سهم نحو البحر فنهره النخل قائلاً:

- آه.. ... فهمت، عاودك الحنين إلى هناك.

وأشار نحو البحر ثم أردف قائلاً:

- ألم أقل لك ذاك هو البحر ؟؟

وتبع عبارته بإشارة نحو بركة ماء راكد غطت سطحها طحالب مخضرة وامتلأت بنقيق الضفادع.

(2)

نكص الصبار نحو البركة الراكدة... إثاقلت خطواته المحبطة وترنح خوفاً.. . حاول أن يلم شتات النفس المتعبة ويقنعها بقبول الأمر الواقع والتكيف معه ثم الاقتناع به.. . تراءى لنفسه أن يصير ضفدعاً ويقتنع بأن البحيرة الراكدة هي البحر فحاور نفسه:

- البحر به حيوانات.
- وكذلك البحيرة.
- بالبحر طحالب ونباتات.
- والطحالب المخضرة هي نباتات البحيرة.
- حين يثور الموج يحطم المراكب الصغيرة

- وحين يثور نقيق الضفادع يحطم المراكب الكبيرة والصغيرة على السواء تلك المراكب التي لا تجدف في الصحراء.

.... صمت الصبار متفكراً فيما بدأ له شيء مما دار في خلده عن البحيرة حقيقة.. ... إبان صمته تبدت له نفسه مقتنعة بالبحيرة وطحالبها ونقيق ضفادعها وأحس ببعض الارتياح يتسلل إلى نفسه فبدأت خطواته تتقدم نحو البحيرة البحر - لبرهة .

اندفع ثم توقف حين سمع قهقهة النخل.. ... إذ ذاك فقط عرف أنه اقنع نفسه بما هو غير مقنع.. . فرض الاقتناع على ذاته.. ... اقتنع بغير قناعاته.. خارت قوة اندفاعه وتسلل الفرح خارج ذاته.. .. بخيبة الفرح توقف.. .. استدار نحو النخل مواجهاً وأشعت عيناه التحدي والرفض.. .. اهتز النخل أول الأمر.. .... فيما تجمدت تعابيره المقهقهة وحينما شعر ببادرة رفض الصبار لرأيه أسرع يضربه بهراوات الجريد.. .. رفع يديه محمياً وجهه ورأسه وعنقه وفي لحظة من قوة الضعف احتضن الصبار وأخذ نفساً عميقاً ثم نفث كل أشواكه نحو هراوات النخل وصرخ:

- هذه بحيرة آسنة وذاك بحر هادر.. .. أيتها الشمس أشرقي بالحق.

شـربت عينـي

المشهد الأول:

أفقت من قيلولة الظهيرة فاتجهت صوب المطبخ... فتحت صـــنبور المياه ومددت نحوه كفي وحين ارتويت استجديت مداً آخـــر من الماء وغسلت وجهي... ونفضت يدايَّ ومسحتهما ثم مســحت وجهـــي بنصف كمي ، لكن رائحة العرق منعتني من الاســتمرار... جلت ببصري في أنحاء المطبخ لأرى بقايا طعام لـــم يُغـــط منذ عدة أيام تطن حولـــه ذبابتان ويسبح على حافته صرصـــور... ملعقة متسخة هنا.. وأخرى هناك... صحن جف طبيخه... كوب مملوء نصفه بشاي عفن... رغيف خبز هاجمه الفطـــر فصار كخارطة طوبوغرافية... صحن به قشور بيض مســلوق... علبة طماطم فارغة... علبة فلفل مطحون ومصبر صـــارت طبقـــتها العليا مرتعاً لفطريات رمادية اللون... تفاحة مقســـوم طـــرفها الآخـــر متعفن... إبريق القهوة وفنجانها هما الوعائان الوحيدان اللذان لم يتورطا في القذارة التي كانت تجتاح المطـــبخ ، وحيـــن لمحتهما أسرعت بطبخ قهوتي المسائية التي تعـــودت شربها منذ سنوات ثم حملت الإبريق والفنجان وجلست

أمــام المطبخ الذي كان يمد ظله حتى منتصف باحة البيت التي كانــت تتوســط أربعــة أبواب وثماني نوافذ وهي التي تستقبل رخات المطر مثلما تستقبل ضوء البدر وبدأت أدخن لفافة بهدوء شديد وكان خروجي الأول.

الخروج الأول:

الدنــيا مليــئة بأزهار جمعت ألوان الطيف... أما أنا فقد كنــت أخطــو بين دروب تحف بها النخل الباسقات والأشجار الظليلات وعند أفق مترع بزهور الياسمين انتصب كرسيان من مخمل وفوقهما تهدلت ستائر من سندس بلون اليخضور الزاهي وفــي الأجــواء تعبق روائح من عطور اقتربت من الكرسيين وجــدت امرأة من نور ترفل في ثوب من حرير سندسي وحين رأتني مدت يديها إليَّ وهمست:

- مرحباً بك يا زوجي.

رددت هامساً:

- وبــك يا رفيقة الدرب... وبنصف استدارة أشارت نحو بناء جمــع معمــار الدنيا وبهاء قصورها في بنائه ثم دلفنا إلى داخلــه وحضنت طفلنا الأول فتناغمت زقزقة العصافير مع

خريـــر جـــداول المــــياه وعــند عريشة من أزاهير الرمان حضــنت طفلـــنا الثانـــي وهكذا توالى حضن أطفالنا حتى صــــارت حياتــنا تنام على قهقهات الصغار وتستيقظ على تغريد البلابل وصار الفضاء يردد لحناً من محبة ونغماً من وداد نشـــز برنيـــن جرس ردني إلى بيتي الذي أعددت في مطبخه قهوتي.

المشهد الثاني:

نهضــــت واتجهــت نحو مدخل البيت ملبياً نداء الجرس وحيـــنما أبان البيت عن ثغره المتشقق قابلني وجه سامر بثغره الباســـم الــذي أبان أسنانه الصفراء المهترئة ولأنه صديقي فقد واجهـــته بابتســـامة أحسب أنها باهتة أبانت عن أسناني السوداء الصـــدئة وبذلك جمع الاهتراء ثلاثة ثغور هدها الزمن وجراح النفوس، وما إن وطئت قدما سامر البيت قال:

- هيا بنا نسرع فالوقت يمر وقد لا نحصل على شئ.
- رويدك حتى ترتشف فنجان قهوة وأرتدي ملابس لائقة.
- اخرج كما أنت ولا يهم أمر الملابس.
- إذاً فارشفها حتى أغسل وجهي وأطرافي...

وبينما شرع سامر يسكب قهوته ذهبت مسرعاً إلى الحمام وعدت بأكثر سرعة وأنا أمسح أطرافي ووجهي بمنشف وجدته معلقاً داخل الحمام ، وبسبب إلحاح سامر التقطت مفاتيح السيارة وخرجت بملابسي التي كنت نائماً بها... فتحت الباب لسامر ثم هممـــت بفـــتح الـــباب ناحيتي فقابلني وجهي منعكساً في مرآة السيارة فتأملته لبرهة من الوقت ثم دلفت داخل السيارة اللامعة وأدرت محـــركها بيـــنما امـــتدت يدا سامر نحو المسجل ودفع بشريط إلى جوفه... حين ابتعدنا قليلاً عن البيت بدا لنا الطريق الإســـفلتي وحيـــن استوت عجلات السيارة فوق الثعبان الأسود أخـــرج ســـامر مـــن جيبه علبه اللفائف وناولني إحداها فبدأت أدخـــنها بشـــراهة جائع لم يذق الطعام لعدة أيام... إبان سيرنا لمحـــنا فتـــيات يسعين في دروبه فخففت سرعة السيارة وبدأت أســـير متبختراً متصوراً نظراتهن المعجبة بها وبسائقها وربما تســـاءلن عمن أكون، لكنني حينما أمعنت النظر لم أر أيًّا منهن مكـــترثة بـــي لذلك دست على ناقل السرعة فالتهبت العجلات بحـــرارة الاحتكاك، وحينما أحسست بخيبتي أطفأت عقب اللفافة وطلبـــت أخـــرى مـــن سامر الذي كان هو الآخر يحاول لفت انتباههن دون جدوى... لذلك قررنا مواصلة السير بسرعة أكبر متجهين نحو أحد الأحياء التي كانت تضم مساكن متهالكة تهالك

منزلـــي وحيـــن دلفنا إلى طرقه المتربة تجولنا عبر أزقته حتى وصلنا بيتا نعرفه، عندها أوقفت السيارة فيما نزل سامر وطرق علـــى بابـــه طرقاً خفيفاً فخرج منه شاب أشعث أغبر يبدو أن المياه لم تلمس جسده منذ ثلاثة شهور، وبعد سلام سريع وحديث مقتضـــب رجـــع سامر حاملاً خيبة المسعى وحين جلس بمقعده قال:

- ليس عنده شئ؟؟
- قلت إذاً سنذهب إلى غيره.

مضـــت أكـــثر من ساعة زمنية ونحن نرتاد الأزقة حتى ظفـــرنا بزجاجتيـــن مـــن سائل يفتت الأمعاء، وهكذا عدنا إلى البيت.

المشهد الثالث:

اللهفة إلى الشراب جعلتنا نقطِّع الطرقات بسرعة المجانين تســـبقنا أنفاسنا الخائفة وفي أقل من ربع ساعة وصلنا إلى البيت وعندها فقط تنفست الصعداء بينما كان الليل يرخي سدوله وحين أحسســـنا بالاطمئـــنان افترشـــنا حصيراً بائساً تصدرته إحدى الزجاجتين وبضعة كؤوس من بللور، وحين تناولنا كأسين اثنين

سمعنا طرقاً على الباب عرفت من إيقاعه قدوم سمير وأسعد... نهضت وفتحت الباب مرحباً بهما كصديقين جمعتنا معهما كثير من جلسات الشراب التي كنا نتوهم إنها حافلة بالسعادة، وما إن مضــت بضع دقائق حتى دارت الكؤوس والرؤوس، وبين كل رشــفة وأخرى نتندر بأي كلام حول أي موضوع نعقبه ضحكاً حــتى لو كان مأساوياً... وبعد الوقت قام سمير وأحضر أوراق اللعب التي يعرف مكانها وصرنا نلعب والأوراق تتطاير... بعد جولة من لعب الورق قررت إكرام ضيوفي فبدأت أملأ الكؤوس كأســاً كأساً حتى وصلت إلى كأسي فصببت بعض الشراب ثم توقفت حين رأيت عيني داخل الكأس الذي صرت أتأمله بهدوء شديد فيما كانت يدي تتبادل ورق اللعب مع الآخرين في حركة آلية سببها خروجي الثاني عن المشهد.

الخروج الثاني:

ازدانت عيناه بهاءً في عيني بمساحة اللون الأبيض الذي سيج ماسحة الأفق البيضوي للحياة... نظراتها في مرابع الجبل بيــن موســيقى من شدو العصافير وزمهرير الريح وبين ثغاء الشــياه ورقــرقة جــداول الوديــان الجبلية إبّان مواسم الغيث الــنافع... ثــم صبياً بين فصول المدرسة وأزقة الشوارع بهذه

المدينة... ثم شاب طموح للحياة... وبينما كنت أتأمل عيني في كأسـي آلمنـي قلبي وأحسست بين جوانحي حسرة تدفقت عبر دمـع بالمآقي أحسسته وحبسته داخلها إذ ذاك رأيت عيني التي بكـأس وقد احمرّ بياضها ثم ازداد الاحمرار حتى صرت أرى الشعيرات الدموية لعيني، وحينما أطلت النظر إلى الكأس رأيت قـنواتها الدمعـية وشعيراتها تبتعد عن جمجمتي تدريجياً حتى صارت كجذع شجرة اجتثت من الأرض وغمرت الدماء كأسي حتى فاضت فصرخت صرخة أحسب إنها وصلت أرجاء البلاد وحينما اختفت تناهت إلى سمعي قهقهات السمار حولي:

- لقد سكر !!!!
- لم يعد بإمكانه احتمال الشراب.
- مسكين...

عـند ذلك أعادتني القهقهات إلى وعيي بالمكان والزمان وواصـلت يدي تبادل أوراق اللعب مثلما واصل لساني الحديث عـن أشـياء كثيرة بينما ظلت عيني تراقصني في كأسي وحين أنهيـنا احتسـاء الزجاجة الأولى وصارت السماء حولنا ملعباً للـنجوم تكـبد البدر السماء فيما رمق سامر ساعته وتثاءب ثم نهض قائلاً:

- لاشك أن أمي بالباب ساهرة .. قالها سامر ونهض...
- أرجــو ألا ألتقـــي والدي العجوز وأنا ثمل كما أنا... سيشم رائحة فمي وسيعنفني بكلام لا أطيق سماعه... ذاك ما قاله أسعد.

... وهكـــذا انصرف السمار وبقيت بمفردي كسير الفؤاد حزين فيما نأى النوم عن جفني فما العمل سوى إفراغ الزجاجة الثانية... فأحضرتها وسكبت الكأس الأول من سائل كريه الطعم والـــرائحة بحـــثاً عن السعادة وحينما لم أجد من أحادثه فتحت حواراً مع نفسي:

- سيصير هذا المنزل قصراً بعد الكأس الثانية...

فدلقتها في جوفي ولكن المنزل لم يزدد إلا خواء...

- الكـــأس اللاحقـــة ســـتحلق بي مع زوجتي التي ستكون... شربت الكأس ، ولكن الزوجة التي لم تكن لن تكون.
- ســـأردف كأســـاً أخرى تعينني عندها سأشتري بيتاً وقصراً وسيارة فخمة أخرى وزوجتي و... و... لكن الكأس اندلقت فيما ازداد فراغ جيبي ونفسي وعقلي وقلت لنفسي:
- - ســـأخرج للتنزه بسيارتي... وحين خطر لي هذا الخاطر

لبســت أزهى ملابسي بسرعة كبيرة وحاولت طمس رائحة الخمر بروائح طيبة سكبتها على ملابسي، ثم أسرعت نحو السيارة وعندما وصلتها وفتحت بابها ظهرت لي عيني مرة أخرى في مرآة السيارة الجانبية فتأملتها ملياً وكأنني أراها لأول مــرة، ثــم أدرت المحــرك وبدأت رحلتي الليلية بين الــدروب المرصــوفة وبعد سير وئيد أحسست بلفح حرارة الجو فقمت بتشغيل جهاز التكييف، ثم ضغطت زر المسجل فصدحت الموسيقا بين جنبات السيارة وحملتني نعومتها إلى عالم غير مرئي وغير محسوس.

المشهد الرابع:

رأســي صــار يــثقل على جسدي وعيناي تدوران في محجريهما... نظرت صوب السماء فبدت لي النجوم قريبة جداً فــيما صــار القمر أرجوحة فضية وأحسست بأنني أملك العالم وحدي في هذا الليل البهيم لذلك صار مقود السيارة لعبة راقصة علــى إيقاع الموسيقى التي صارت ذات إيقاع سريع وتحررت نفســي من قيودها فبدأ جسدي يرقص على إيقاع تلك الموسيقا وأخذت أعزف إيقاعاً مماثلاً فوق منبه السيارة وهكذا حلقت في عوالــم أحســب إنها خارج الأرض، ثم اتجهت صوب الطريق

المحـــاذي للـــبحر فبدت لي صفحات اليمّ كنبراس رقراق يبعث نسائم جذلى مما زاد في إحساسي بنشوة كبيرة، ثم لمحت ضوءاً قادمـــاً مـــن بعـــيد لم أعره انتباهاً، وحينما هممت بالانتقال إلى طـــريق جانبـــي وفي لحظة عبوري تفجر صوت ارتطام داخل رأســـي، فأفقـــت وقد صارت السيارتان كتلة من عجين معدني وأحسست ألما بعيني وسائلاً ساخناً يندلق فوق وجهي فأيقنت أن جـــرحاً أصابني وآلمني ظهري ثم صرت أسمع أنيناً قادماً من الســـيارة الأخرى فبكيت، وتأكدت أن الاصطدام حقيقة ضربت سيارتي ، ثم غبت عن الوعي.

المشهد الخامس:

... ســـرير وأضواء ورجال ونساء يتحلقون حولي والألم سيطر على رأسي ووجهي وظهري ، بعض الأيادي تمسح الدم وبعضـــها يحمـــل مباضع لمعت على الضوء المسلط في غرفة العمليات بالمستشفى وسمعت صوتاً يقول:

- لابد من استئصال قرنية العين.

عندها قلت في نفسي:

- إنهم يستأصلون عيني التي شربتها.

غداً تزهر السنابل

جدلية أولى:

- قاحلة هي الصحراء... مخيفة...
- جدبة الزرع والنبت... مترامية...
- ماذا أفعل؟
- بين الفعل والفعل... فعل...
- طلسم يحيطني...
- لكن الشمس متوهجة!!!
- محرقة هي الشمس...
- ومبرقة هي السحب...
- المزن قليل... والزمن طويل...
- أكره الانتظار... وأكره البوار...
- لو زاد المزن وقصر الزمن...
- لو .. تفتح باب الوهن...

- إذا زاد المزن و...
- إذا شرط للتمني...
- تلك البداية...
- بل هي النهاية...
- إذا تمنيت، ولو توفرت الظروف لأمكنني العمل...
- بدأت تحلم...
- الحلم بداية العمل...
- العمل بدء الحلم...
- لكنهما الصحراء والشمس
- الشمس الحقيقة؛ وحقيقة الصحراء، بينهما حقيقة...
- طلسم آخر...
- تجاهل الحقيقة !!!
- بل معرفتها...
- في البدء كان الفعل...
- لا بل كانت الكلمة...

- خلق فسوّى...

- ثم قدّر فهدى... منطقية الترتيب...

فعل أول...

للعــرق طعم لاذع .. ورائحة التراب عرفت طريقها إلى جوفه .. توقّف لاهثاً .. التف حول ذاته .

ســقطت عيناه على التراب ، حاول التقاطهما ، فمدّ يديه ووقع تعبا ...

تعبت ، ليتني ما بدأت ..

لكنها الصحراء ولا مطر !

التعب شديد هو الآخر ....

أحــس جفــاف حلقه .. اقتربت زمزمية الماء من يده .. اندلقــت المــياه إلـــى جوفه وبسرعة اندفعت .. القطرات إلى الأوردة والشــرايين فالشــعيرات الدموية .... على جبينه أحس هــواء باردا .... هدأت حركة الدماء .. عندها ، أحس الراحة تغمــر كــيانه .. استلقى على ظهره .. يرقد .. نسمات خفيفة تحمل غيمة لم يجللها السواد، توقفت الغيمة ..

جدلية ثانية:

- ... أيتها الغيمة ألا تمطرين ؟؟؟
- ... المكان صمت مطبق...
- ... آه لــــو يهطل المطر... لو شجرة تظللني، أو نبتة أقتات مــــنها، لــــيس هناك سوى الصحراء والصخر؛ تعب السنين وليلك العمر...
- ... انتظار المطر وهن...
- ... ماذا ؟؟
- ... أفعل....
- ... وكيف يكون الفعل ؟؟؟
- كيفما يكون...
- والمطر ؟؟؟
- هبة السماء...
- والماء ؟؟؟
- جوهر الحياة ...

- أينه؟ أريده...
- لا تطلبه...
- كيف أحصل عليه ؟؟؟
- الفعل سيد الأشياء...
- والمطر ؟؟؟
- هبة لا تدوم...
- ليتني أحصل عليه...
- لا تتمنى؛ افعل...
- ها هنا صحراء وصخر...
- ومن الحجر ما يشقق....

فعل ثان ...

استـــتقام ظـــل المعـــول... بدأ يعمل... ضرب الأرض... تصـــدع الصـــخر... انفلقـــت التربة بعد المناكحة الأولى، فبرز جوفهـــا مزهـــرا... صـــار طعم العرق حلوا... أمتعته المناكحة الأولى عاود تكرارها مرات ومرات... ما عاد الإعياء يرهقه...

هل من مزيد؟؟؟ تساءلت التربة...

ابتســـم... عـــاود فعـــل الفعل... ضجت أعماقه طربا... أمطـــرت جبهته وتصبب زنده عرقا... أحس أن السنابل تزهر غدا.

ضغط الدم

الشارع الإسفلتي منضدةٌ سوداء مستطيلة، وجذع شجرةٍ مقطوعةٍ بعنف هو الكرسي.. الخواطر لفافاتٌ يشعلها اليوم المتقد حزناً وأعمدة الدخان المتصاعد من محركات السيارات المتهالكة هو نفث صدره الذي سار بحياتهِ ضمن الجموع العابرة السابلة التي صارت تتنفس هواءً ملوثاً بنفايات الفقر والعجز والحيرة، شهق شهقةً أولى من الهواء الملوث، فظهرت له ثكلى تهيمُ على وجهها بحثاً عن ابنها الذي ذهبَ لصلاةِ الفجرِ ولم يعد.

سَهَمَ بصرهُ نحو ركن آخر من المنضدة السوداء، فقابلتهُ وجوهٌ أُبَهَتها فقر الدم..

فسأل الوجوه: لماذا أنتم هكذا يا هؤلاء ؟؟!

(همساتٌ غير واضحة)..

عند طرفٍ قصيٍ من المنضدة المستطيلة السوداء لمحَ طفلاً دامعةٌ عيناه

فسأله: ما بكَ يا ولدي؟؟

أجابَ الطفل: فقدتُ لغتي وأغنيتي..

سأله: لماذا لا تبحثُ عنهما؟؟

أجاب الطفل: ظننتُ أحلامي وسادةً لكم..!

قال في لغةٍ مرائية: هي كذلك يا بني..

رد الطفل: أَكذَبتني القول؟؟..

حاول التأكيد: كلا..

رد الطفل: بلى، إنك مثلُ أبي..

تساءَل: كيف ؟!!

رد الطفل: قال لي دع اللغة وابحث عن قوتِكَ حتى تصيرَ رجلاً.

تساءَل: وماذا حدث؟

رد الطفل: تركتُ لغتي ولم أجد قوتاً يُصيرُني رجلاً....

بهت السائل وأحس أنه يختنق، فترك الطفل في طرف المنضدة السوداء القصي في وسطِها وسرَحَ ببصره نحو رجلٍ يحمل حقيبةً صغيرة يسير الهوينا، وقد بهتت ألوان ملابسه، وكان وجهه مصفراً كالحا ترهقه ذلة السؤال عن معاشٍ لقوتِ

العـــيال، وتحني هامتهُ أيام الزمن الخائب الذي أوجده على قيد الحياة فقال في نفسه سأسأله.. وبدأ يحاوره:

- أيها الرجل الأصفر، ماذا بك؟؟

ردَّ الـــرجل الأصفر على سؤاله بنظرةٍ إرتدت إلى نفسه خاسئة ثم قال:

- لماذا تسألني.. ابحث عن الحقيقة وحدك..

انصـــرف الرجل، وعند طرف المنضدة هتفَ من بعيد: لماذا ترهقونني بالسؤال؟!!

تعـــرقَ جبيـــن الجـــالس علـــى جذع الشجرة مطلاً على المنضـــدة السوداء، ثم أحسَ بأنفاسهِ تضيق، أعقبها دوارٌ شديدٌ برأســـه، تـــبعهما زوغانُ بصره، ولحقهم ألمٌ يسري بدمهِ الذي أحـــس أنـــه زُرِعَ دبابيســـاً.. ثم سمِعَ قرقعة سقوط جسدهِ على الأرض، فيما صارت الدنيا تميدُ به، وبعد برهةٍ فاجأته يد رجلٍ آخـــر تمسكُ بمعصمه، أردفها صوتٌ جَهوريٌ يقول: إنهُ ضغطُ الدم..

لا أحد يبتسم

المشهد الأول:

الأنفـــاس تضيق بالصدر ويضيق بها... تصير الطرقات بلـــون الدُجى رغم ضوء الشمس ولون النهار... الوجوه ينتابها الـــتجهم... لا أحد يبتسم والعبوس سيد الموقف... هذه الطرقات المليـــئة الفارغة تلفت حولك أيها التائه بدروبها... ذهبت هناك فانتابنـــي القلق... تململت قليلاً وهربت إلى هنا... وإذا وصلت تسلل خدر الإحباط إلى أوصالي... تسمرت قدماي على الأرض حيـــنما جلست على حافة صندوق خشب اكتسى لونه من عرق التعب وزيوت السيارات وشحومها التي تعلقت بملابس العاملين بهـــذه الورشـــة التـــي تحتضن ضياعي في قيلولة بعد غداء لم أتناوله... لاحظ صاحب الورشة الميكانيكي الماهر العم محمود آثـــار جـــوع وعطـــش ولفحـــات شمس الصيف التوهج بالسأم والحـــرارة فأحضر بكرمه المعهود إبريق الشاي ورغيف الخبز جعلتني رائحته أحس بنشوة الجائع عندما يشم رائحة خبز طازج وجلـــس مقرفصاً أمامي يملأ كوبين من الشاي وببسمة صادقة وود ظاهر قدم لي كأساً.

- تفضل يا أستاذ... خطوة عزيزة... لم أرك من أسابيع.
- كل يلهث ولم يلحق.
- البعض لحق.
- ليس بالعرق... بل بطرق أخرى صارت معروفة.
- لكنهم لحقوا بالحياة المترفة.
- الصراحة أهم مكسب للإنسان.

... أنهى العم محمود كأسه ونهض واقفاً... علي إكمال إصلاح هذه السيارة قبل المغرب.

تابعته بأسى... الصمت يحتوي ذاتي ولذة الشاي مع الخبز ملأت معدتي الخاوية فسرى بعض النشاط في دمي وعاد الأسى يحتوي كياني.

- العم محمود أدار لك ظهره من أجل خبز الصغار.
- هو محق في ذلك.
- جئته آملاً أن أحدثه عن لوعة البطالة وضيق الصدر وذات اليد.
- أه لـــو تجد من تبوح له بمكنونات قلبك وحقيقة أزمتك ولكن

لا أحـــد يــريد الاستماع مثلما لا أحد يبتسم الكل في انكفاء على الذات إلى الذات.

المشهد الثاني:

بكل أثقال الحزن نهضت وجررت خطاك المتعبة نحو صديقك المسئول بإحدى الشركات لعلك تجد معه عملاً يقتات منه أبناءك... الشوارع تكاد تكون مقفرة وأنا أترنح يمنة ويسرة والأطفال يتصايحون في فرح.

- بابا جاء .... جاب الخبز

وتمتد يدك توزِّع الخبز والحلوى وتمتلئ اليدان بالخيرات وتطفق تمنح هذا وذاك..

ونشوة الفرح تجعلك ترقص طرباً ناسياً عمرك عائداً إلى الفرح ببهجة الفرح ... وفجأة تنزعج من صوت بوق سيارة كادت تدهسك عندها فقط تكتشف أنك رقصت كالمخبول وسط الطريق وتلتفت نحوك خجلاً فتسرع الخطى نحو صديقك المسئول بالشركة وقد حملت إليه غربة الطمع والخوف، الطمع في الحصول على العمل الذي تريد والخوف من أن شخصاً يعرفك رآك وأنت ترقص كالمخبَول وأخذ يضرب كفاً بكف

متحسراً على إصابتك بالجنون.

المشهد الثالث:

حيــنما وطــأت قدمــاي المبنى الضخم ظهرت علامات الفخامـــة في جميع أرجائه فشركات النفط تتميز مبانيها الإدارية بأثر النعمة وتمتلئ كروش موظفيها وتنتفخ وهي في بحبوحة... الهــواء المكــيف والمــوارد المالية بينما رجالها الكادحون في الصحراء تصلاهم الرمضاء حراً والشمس لهيباً يحيلان الوجوه الكادحة إلى سمرة لا تعرف الزوال وتذوب الشحوم بفعل العرق والتعب والعناء.

- تفضّل يا أخ ..

كان المتحدث موظف الاستعلامات.

- من فضلك أريد رؤية الأستاذ سعيد المدير الإداري والمالي.
- حسناً... تفضل بالجلوس.

رفع المستعلم سماعة الهاتف بينما تحركتُ نحو مرآة في زاويـــة مـــن الصـــالة واجهتني بوجه كالح وشعر أشعث مغبر وبسرعة غريزية رفعت يدي لأخفي وجهي عن المرآة.

- بطاقتك يا أستاذ.

وبفـــرحة المنتصر مددت يدي إلى جيبي وأخرجت بطاقة ومددتها قائلاً:

- تفضل. هل الأستاذ سعيد موجود؟
- نعم وقد أذنٍ لك بالدخول.

قال المستعلم ذلك وهو يدون البيانات بسجل الزيارة.

- حضـــرتك كاتب... شيء عظيم يا أستاذ ظننتك عامل بناء أول الأمر.
- كلانـــا يكتب بطريقته هو بالمعول والجاروف وأنا بقلم من حبر جاف ونفس أكثر جفافاً.
- أصعد إلى الدور الثالث وهناك ستجد من يرشدك.
- شـــكراً... واتجهت نحو المصعد ضغطت على الزر الثالث ولم أتعب في البحث عن مكتب صديقي سعيد الذي استقبلني بترحاب كبير قائلاً:
- أهلاً... أهلاً ومرحباً.
- أهلاً سعيد.

قلـــتها وقـــد غمرنـــي فرح كبير لا أعرف مصدره بالضبط.

- زيارة مباركة.
- بارك الله فيك.
- تفضّل إليك هذا المقعد.
- شكراً.
- شاي أم قهوة؟
- فليكن ما تريد.
- انصـــرف صـــديقي لإدارة قــرص الهــاتف بينما خرجت الخروج الأول .

((خروج أول محدثاً نفسي))

فليكـــن ما تريد... مفردة لم أستعملها من قبل ... تعودت تقرير ما أريد... لكنني الآن أسلمت القياد لغيري... يا إلهي هل انحدرت إرادتي حتى هذا الموقف؟

.... قــرقعة وضـــع جهاز الهاتف أعادتني من الخروج الأول إلى صديقي.

أنســتنا ســيد عــبد القادر... زيارة كريمة... ما أخبار الإعلام والصحافة والكتابة؟

- بخير.
- ماذا بك يا رجل... ما عدنا نراك كثيراً؟
- إنها ظروف الحياة؟
- منذ أسبوع استمعت إلى ندوة حول كتابك الجديد بالإذاعة... إنه رائع فعلاً.
- هي محاولات يكتبها الإنسان من وقت لآخر.
- هذا تواضع يا أستاذ.
- هذا من لطفك.
- أتعرف إنك جئت في الوقت المناسب.

... لوهلة خرجت الخروج الثاني محدثاً نفسي

((خروج ثان))

- لابد أنهم في حاجة إلى موظفين وهو بلا شك سيعرض علي وظـيفة ما... سوف تكون وظيفة جيدة دون شك وسأحصل مـنها علـى معـاش كبير يخلصني من الحالة البائسة التي أعيشـها، رنيـن الهاتف أرجعني إلى صديقي الذي سمعته يقول:

- نعـــم يـــا ســـيدي... أمامي الصحفي الذي سأكلفه بالتغطية ووضع صديقي سماعة الهاتف واستطرد يحدثني

- وبرامجك الإذاعية وكتاباتك دفعتني إلى التفكير في الاتصال بـــك لكنك جئت في الوقت المناسب... نعم، فشركتنا ترغب فـــي أن تحظى بتغطية صحفية لمشاريعها ولن نجد أفضل منك للقيام بذلك ما رأيك؟؟.... وفي هذه اللحظة دخل رجل فـــي العقـــد الخامس من عمره وبيده سفرة عليها كوب ماء واحد وفنجان قهوة.

- تفضـــل قهوتك يا أستاذ ... وضعها وانصرف فيما واصل صديقي حديثه:

- التغطـــية الإعلامـــية شـــيء جيد وسأتحدث باستفاضة عن الشـــركة ومشـــاريعها وســـنركِّز علـــى الصورة النابضة بالحـــركة... حـــتى صورة الأستاذ المدير العام وصورتي شخصياً لن نجعلهما جامدتين، بل سنتكلم ونتكلم حتى يتمكن المصور من التقاط حركة حديثنا.

- كل شيء جيد لكنني لن أستطيع ذلك.

- لماذا؟؟

- لأننـــي عــاطل عــن العمــل وما عدت صحفياً ولا كاتباً ولا إذاعياً وجئتك هنا باحثاً عن عمل أقتات منه وأسرتي.

- هكــذا إذاً... حســناً، أرجــو المعذرة فأنا على موعد مهم ويمكنك أن تشرب قهوتك....

.... بهدوء انصرفت دون أن ألمس فنجان القهوة .

الألم الضاحك

إهـــداء

إلى الفنـــان المرحوم رمضـــان
القــاضي الضاحك البــاكي إبان
عرض مســرحية هند ومنصور

المشهد الأول:

ستارة المسرح مسدلة بالكامل والكراسي خاوية بينما الحركة دؤوبة فوق الركح وخلف الكواليس.. أصوات مطرقة تدق المسامير لتثبيــت مناظر المسرحية، وفني الإضاءة يضيء مصباحاً ويطفئ آخــر حتى تأكد من صلاحية المصابيح.. مخرج المسرحية يطمئن على ملابس الممثلين ويتفقد مكملات المسرحية.. أحد الممثلين يدخل الكوالــيس حاملاً أرغفة خبز جافة وحبات من الطماطم الطازج مع مجموعــة علــب مشــروبات غازية ثم يقف وسط الخشبة وينادي بصوت جهوري:

- الغذاء.. الغذاء..

صوت أقدام ترتطم بالخشبة ثم يظهر العاملون بالمسرحية وقــد تركوا كل ما بأيديهم فالجوع يقرص الأمعاء بعد أن تأخر الغذاء، ولم يبق على العرض إلا بضع ساعات.. يتحلق الجميع حول أرغفة الخبز.. البعض جالس على الأرض، والبعض على

مكمـــلات المـــناظر والبعض الأخر يقف مستنداً على كالوس.. وســـط غـــناء شعبي وتعليقات وتندر يزدردون لقيماتهم.. دقائق مضت أعقبها صوت رمضان يصرخ:

أين غذائي؟!!

يدخل المسرح مترنحاً.. ليس بسبب خمر احتساها، ولكن بســـبب عـــرج بقدميه أصابهما شلل جزئي منذ الطفولة، وحين يطمئن إلى غذائه يصفق فرحاً ويرفع عقيرته بالغناء:

- ست الحبايب يا حبيبة

ولروعة الأغنية انخرط الجميع في الغناء لأروع مخلوق يحبه الإنسان؛ للأم التي يراها كل إنسان كأجمل ما في الكون.. فجـــأة، يدخـــل شـــخص غريب لا يعرفه أحد ويسأل عن مدير الفرقة، فيتقدم منه عبد الله سائلاً:

- هل من خدمة؟؟

- أتسمح لي بمحادثتك على انفراد؟؟

- بكل سرور..

ثـــم يســـتأذن الزملاء وينصرف مع الرجل الغريب، فيما يعود الهرج المحبب والألفة إلى أعضاء المسرحية.

المشهد الثاني:

خـــارج كوالـــيس الخشبة وقف المخرج مع الرجل الذي اســـتأذنه فـــي الانفراد.. الرجل في حوالي الثلاثين من عمره،، ملامحه تدل على أنه يعاني من فقر الدم ،، وملابسه متواضعة توحي هي الأخرى بتواضع حالته المالية.. حين لاحظ المخرج العرق المتصبب من جبهته قال له مطمئناً:

- ماذا بك يا صديقي؟
- أنا جار زميلكم رمضان وجئت لأمر عاجل..
- وما هو؟؟
- والدة رمضان توفيت هذا الصباح، والجنازة حان موعدها، وجئت لأخبره كي يحضرها..

حالـــة ذهول أصابت المخرج وهو يستمع إلى قول القادم الغريب غير مصدّق، وصرخ في داخله قائلاً:

- لمـــاذا؟؟ لمـــاذا يحدث هذا الآن؟! ليتها أرجأت وفاتها حتى انتهاء العرض الأول..

قال الرجل القادم:

- ما العمل؟

أجاب المخرج:

- اذهب أنت وسأنقل له الخبر بأسلوبي الخاص.

انصرف الرجل فيما عاد المخرج إلى المسرح بوجه كالح ونظرات زائغة.. قال له رمضان:

- ماذا بك؟.. ماذا أصابك؟

نظر له المخرج نظرة فاحصة مشفقة غاضبة.. ثم دارت عيناه بين الجمع الذي توقف عن الغناء والغذاء.. وما هي إلا لحظات حتى أومأ بيده إلى أحد الممثلين، فتحرك من مكانه وتبع المخرج الذي ذهب خارج المسرح ؛ وما هي إلا لحظات حتى تبعه الجميع، ولم يبق إلا رمضان وقد رفع عقيرته بالغناء وأحس بخلو المسرح من زملائه:

- ست الحبايب يا حبيبة..

وبينما هو كذلك، رجع الجمع المسرحي، وسرت همهمات بينهم صرخ على إثرها رمضان:

- ماذا بكم يا قوم؟؟

تحركت الأرجل وقد هزها إحباط الخبر، وأصابها الوهن.. اقترب أحد الممثلين من رمضان معانقا دامع العينين.. وباكتمال دائرة الحزن والدموع والصمت، صرخ رمضان:

- خذوني إلى أمي.. خذوني إليها..

المشهد الثالث:

وسط تكبير وتسبيح ووري جثمان المرأة الطاهر التراب.. وحين وضعوا اللحد الأخير انخرط رمضان باكياً بكاء مراً تمزقت له القلوب من حوله.. كانت هى السلوى والحضن الدافئ والوسادة التي يتوسدها عند الألم.. هى الضحكة الشجية والنغمة المموسقة.. لذلك كان من الطبيعي أن يذرف رمضان دموعه سخيةً.. بعد برهة من الزمن، تقدم أحد أعضاء الفرقة المسرحية من رمضان وقال:

- هيا يا رمضان إلى البيت.. سنأخذك إلى هناك لتستريح.
- بل خذوني إلى هند.. إلى المسرح لننسج لحن الحب الذي عزفته موسيقى (هند ومنصور).. ذلك هو قدري.

بهت الجميع؛ وظنوا أن الرجل أصيب بحالة عصبية هستيرية، لكنه قال لهم من بين دموعه الصامتة:

- لن أخرج من هنا إلا إلى المسرح.. أنا لا أمزح ولست في حالة هستيريا كما تقولون.. إننا نؤدي رسالة لن يعيقنا عنها شيء.. حتى الموت.. حاول الجميع إثناءه عن عزمه.. برروا له أسباب إيقاف العرض المسرحي قائلين:

- إن الجمهـور لـم يحضـر بعـد وسنعتذر له.. لكنه أصر إصـراراً صلداً علـى تقديـم (هند ومنصور)، قال له المخرج:
- إن ذلك لا يمكن، لأن دورك يتطلب مساحةً من الفرح حتى تستطيع أن تضحك وتضحِك الجمهور..
- سأضـحك.. لا تخف.. سأضحك هازئاً بالموت الذي حاول أن يهـزأ بي، وسأُضحككم جميعاً على هذا المجهول الذي تسمونه الموت.. فالموت لا يقهره إلا الضحك
- وأهلك وإخوتك والناس.. ماذا سيقولون ؟!!
- أنتم أهلي، والمسرح أمي وأبي وإخوتي.. إنه حياتي.

وأمـام إصـرار رمضـان الشـديد على موقفه، تثاقلت الخطوات نحو المسرح ؛ وما إن وصلوا إليه حتى قهقه رمضان فرحاً وعاد يردد أغنيته:

- ست الحبايب يا حبيبة

حيـن فتحـت الستارة كانت الأنفاس مشدودةً لهذا الصلد الـذي يـنازل المـوت.. وحين دخوله الركح، ضحك ضحكته المقهقهـة المجلجلـة.. . وتعالت الأكف بالتصفيق حتى أسدِل الستار.. .

الرحلة فجراً

وحدة بالدحي.

2 – طايبة وإلا رايبة.

1– رايبة يا أسطي.

3 – السلام عليكم... صبحكم بالخير يا أولاد.

2– زيد النار يا سالم.

3– ثلاثة عاديات يا اسطي.

4– قداش الحساب يا سالم.

3– ثلاثين.

تلـــك الضجة التي تملأ المحل الصغير تدفع (السنفاز) مسعود إلى مواصلة عمله بنشاط... يداه تنتقلان بخفة من صحن الزيـــت المعدني إلى وعاء العجين المتكوم بداخله... إلى طبق البـــيض تتناول أصابعه العجين بعد أن تستحم في صحن الزيت وتبدأ تفرك قرصاً منها حتى يتحول إلى فطيرة رقيقة تغطس في حمـــام الزيـــت الســـاخن المتقد بغاز (البوتان)، أبخرة الزيت المخـــتلطة بأنفـــاس رواد (السنفاز) تجعل منه حجرة مركزية التدفـــئة... تغـــري الإنسان بالاندساس داخلها هرباً من صقيع

ســاعات الفجــر المشبعة برخات المطر المتساقط في هذا اليوم الشــتوي وفي الساعة السادسة صباحاً... الجميع يلتهم فطيرته البعض يضيف إليها حبات من الملح والآخر يفضل التهامها كما هــي... عــن بعد كنت أرقب المشهد... الداخلون والخارجون شــيب وشــباب... مدنــيون وعسكريون بطون تمتلئ وجيوب تفــرغ... وأيــد تلقف الدراهم راغبة وبإصرار... وحيداً كنت خارج المحل... التف بمعطف هاجمه التمزق من عدة جهات... ولــم تفلح الرقيعات في إصلاحه... بإصبعين اثنين كنت أطبق على لفافة التبغ التفت يميناً ويساراً متظاهراً بالقلق والانتظار... انتظار ماذا؟؟... لا أعلم... بين الحين والآخر تقف سيارة أمام (السنفاز) أو تمر من أمامه مسرعة... وأنا أرقب المشهد دون أن أكــون طــرفاً فيه أو جزءاً منه صعب رؤية الفعل والبقاء خارج دائرته... يضغط عليه... يخنق نفس الإنسان اللعنة على الجــوع... ازدادت زخــات المطــر قــوة وما عاد باستطاعة المعطف المرقع مواجهتها... لابد من الفرار.

- الفرار ممن؟؟..
- من المطر
- إلى أين؟؟..

إلى داخل المحل .. حيث لا مطر .. حيث الدفء والشبع وتندفع قدماي نحو مدخل (السنفاز..)

دلفـــت داخلاً. وحينما واجهتني عينا الرجل الجالس خلف عجينه الدقيق.

- صباح الخير.
- يصبحك بالخير.. وقبل أن يهم بالسؤال عن طلبي .. أدرت ظهري نحوه .. و سهمت عيناي ترقبان المطر.
- هــيا الســـلام علــيكم .. الله يعـــاون.. قالها رجل كان يهم بالانصـــراف وهو يتمطى .. صار المحل خالياً من الزبائن عداي..
- آه .. أش نعطوك يا شاب؟..
- شكراً مازال شوي .. مستني واحد .. أجبته متلعثماً.
- على راحتك.. و مضى الرجل يعمل بخفة بينما كان مساعده ســـالم يقلــب الفطائر السابحة في صحن الزيت الساخن .. نظـــرت إلى ساعة يدي .. كانت تشير إلى السادسة والربع إذاً فلقد مضت ربع ساعة وأنا أنتظر.
- و لكن ماذا تنتظر .. يتوجب علي التحرك نحو العمل .. لابد أن أكون هناك عند الساعة السابعة .. أمامي خمس وأربعون دقـــيقة .. ويتوجب عليّ قبلها أن أعود إلى البيت حاملاً خبز الأطفـــال.. لقد خرجت باكراً كي أذهب إلى الخبز.. وحينما وصـــلته اكتشـــفت الحقيقة .. ليس معي ثمن رغيف واحد..

والأطفال ينتظرون أن أعود لهم ببضعة أرغفة ليحملوا معهم إفطــارهم المدرســـي .. وها أنا أقف بهذا المحل محتمياً من المطر.

- يا إلهي! .. ماذا سأقول لهم...ماذا سأفعل؟!

- قل المخبز مقفل.

- لكـــنهم يعـــرفون تمام المعرفة أنه مفتوح فهو لم يقفلِ يوماً واحداً منذ عرفناه في غير أيام العطلات؟؟

وامتدت يداي تبحث في جوانب ملابسي فربما تجد بضعة دراهـــم تكفي لشراء حتى رغيفين.. كانت أصابعي تنتقل من جيب لآخر بعصبية ظاهرة أثارت استغراب (السنفاز..)

- عــــلاش أتـــدور يا شاب .. كان ما تحتكش فلوس أفطر و خلص يوم ثاني.

نحوه التفتت .. أشرقت عيني بفرحة .

- الناس لبعضها – أردف (السنفاز..)

- و لكن..

- يا راجل صلي على النبي و خوذ افطر .. صبح..

ودونمـــا كلمـــة مد لي صحن به فطيرة شهية .. وأنا أهمٍ بالـــتهامها بدأ كأنه يراقبني.. أدرت وجهي نحوه .. كان منهمكاً

فـــي تقليـــب العجين... بسرعة التهمت الفطيرة ومسحت يداي ووجهي ببقايا الزيت التي علقت بها.

اقتربت من (السنفاز) بخجل كبير و حينما أحس بي رفع رأسه.

- صحة .. صحة..

- الله يسلمك.. قد أش الحساب.. و مددت يدي إلى جيبي باحثاً عن الثمن .. و يبدو أنه أحس بحراجة موقفي..

- خللي مرة ثانية.

- و لكن.

- الناس لبعضها .. يا سالم مد للراجل دينارين... وفي حركة آلـــية قبض سالم المبلغ من العلبة المخصصة للنقود ومد لي دينارين.

لقـــد اربكنـــي الموقف و أحسست بالكثير من الحرج .. وفيما أنا اتنقل ببصري لأقول بضعة كلمات شكر أحسست بثقل لســـاني وبعـــرق غزير يغمر جسمي وأنا في حيرة من الموقف قال (السنفاز..)

- الناس لبعضها يا راجل.

- وهممت بسؤاله عما إذا كان يقرأ أفكاري.

.... وكما لو كان يقرأها

- الفلوس يحضرن ويغيبن والدنيا واليها الله.
- كيف عرفت .. وقاطعني
- كل واحد تواتيه ظروف .. ويا سعدك يا داير الخير
- أما غريبة؟
- ما غريب إلا الشيطان يا خوي..

حتى عارفين ظروف بعضنا .. والشهر لا خش .. طلع..

- المهم .. غذوه إن شاء الله .
- خوذ راحتك .. ومن اليوم لراس الشهر يدير الله طريق..
- بارك الله فيك .. السلام عليكم.

...... بفــرحة غامرة حملتني قدماي إلى المخبز ثم إلى البيت و حين فتحت الباب .. فاجأتني طفلتي ...

- بابا .. بابا.. جاب الخبز.....

الصولجان

المشهد الأول:

صالة المقهى الكبير غاصة بروادها.... المناضد امتلأت بأكواب الشاي والمشروبات الغازية وعصائر الفواكه ومرمدات السجائر هي الأخرى ملآنة بأعقابها والمكان يعبق برائحة هي مزيج من التبغ والقهوة والكاكاو والجميع يثرثرون عن كل شيء دون جدوى سوى اغتيال الزمن وكنت أحد الجالسين.

لكنني لم أكن أدخن ولم أجد أحداً أثرثر معه سوى بعض نخلات غير مثمرة كانت تثرثر معي مهسهسة بأوراقها... فنجان القهوة وكأس ماء أمامي... كان بيني وبين النخلات حاجز زجاجي وبيني وبين البحر طريق إسفلتي دهسته السيارات المسرعة والمبطئة... نادلوا المقهى يرتدون ملابس أنيقة ويرسمون ابتساماتهم المصطنعة فوق وجوههم الحليقة وفجأة تناهى إلى مسمعي صوت جهوري يقول: صمتاً يا سادة... صمتت الأفواه واشرأبت الأعناق نحو المتحدث... شاب مفتول العضلات قوي البنية، ملامح وجهه اكتست الكثير من القسوة ونظراته كانت حادة كطائر جارح إبان الصيد، ورغم

البرد الشديد فقد كان يرتدي قميصاً قطنياً قصير الكم أسود اللون إضافة إلى سروال قصير يلامس ركبة ساقين رياضيتين مع حذاء أسود أيضاً يرتفع فوق الكعبين قليلاً... حين التفتت العيون نحوه، رفع الشاب يديه فكانت اليسرى فارغة واليمنى تحمل عصاً معدنية ظهرت كصولجان مضيء، ثم واصل حديثه مستعيناً بصولجانه في التعبير وقال:

- أنا لست مجنوناً وأنتم لستم عاقلين... إنكم تغتالون الزمن ثرثرة وأنا أغتاله سعياً في دروب الحياة، باحثاً عن لحن عذب ينساب عبر المسامع ليصل القلوب والأفئدة... قال هذه الكلمات فتفصد جبينه عرقاً نظر إلى صولجانه بمحبة وانصرف وسط قهقهات الجلوس وتعقيباتهم الساخرة السمجة، ثم عادت صالة المقهى إلى ثرثرتها ولا مبالاتها.

المشهد الثاني:

خرج الشاب فقررت تتبعه كمخبر سري وحرصت ألا يلاحظني أو يحس بي ...ابتعد الشاب عن المقهى وبخطوات مسرعة، اتجه عبر بعض الدروب والأزقة نحو حديقة المدينة الكبيرة التي كانت خاوية من روادها، وكيف لا وهسهسة الأوراق تحولت إلى صفير بسبب ازدياد شدة البرد وسرعة

الـــريح... جلـــس فـــي البدء على مقعد خشبي وظل يتأمل ما حولـــه... ثم نهض واتجه صوب قاطع في الحديقة واندسّ بين شـــجيراته جاثـــياً على ركبتيه، ثم زحف مسافة قصيرة ونهض بعدها حاملاً قطة صغيرة كانت تموء من شدة الجوع والبرد... وحين أحست القطة بدفء صدره أغمضت عينيها فيما عاد هو إلـــى المقعـــد الخشبي وظل يمسح على فروها، فارتسمت على وجهـــه ابتســـامة هادئة وظل يرقبها بعينين حانيتين، ثم نهض بهـــدوء وبـــدأ يخطـــو خطواً وئيدا، ممسكاً بقطته ماسحاً على فـــروها.... عند هذه اللحظة هدأت الريح قليلاً، ثم أخذت تبطئ فـــي ســـرعتها كلما واصل سيره ولكي يمضي في تهدئة القطة وضع صولجانه خلف ظهره وثبته حتى لا يقع... وهكذا واصل سيره فيما واصلت اقتفاء خطواته متعجباً مما أرى.

المشهد الثالث:

مضـــت نصف ساعة وأنا أتبع الرجل دون أن يحسَّ بي فـــيما كـــان الآخـــرون يرمقونه بنظرات بعضها بدافع العطف وأخرى بدافع الشفقة وثالثة بدافع التطاول والاشمئزاز، ثم فجأة توقـــف أمام باب بيت عتيق هزت الرطوبة جدرانه بشدة، حتى صـــار مهجوراً وتكدست أمامه أكوام القمامة وبعدها التفتَّ يميناً

وشـــمالا، ثم دفع الباب بهدوء بعد أن تأكد من صولجانه المثبت خلــف ظهره، انتظرت بضع دقائق وحينما هممت بالانصراف انساب إلى مسمعي لحن شجي من نغمات ناي انبعثت من البيت المهجــور الذي احتوى الشاب وقطته، عندها قررت التأكد من مصـــدر الصوت، فأسرتني النغمات ودلفت داخل المنزل بهدوء وحـــذر شديدين، وفي غرفة أضيئت بمصباح كيروسين رمقت الشـــاب منزوياً في زاوية الغرفة مفترشاً الأرض بينما افترشت القطـــة فراشاً دافئاً وأمامها بعض طعام، فيما كان الشاب يعزف علـــى الناي الصولجان سجت خطواتي في هدوء حتى غادرت المـــنزل المهجــور فيما كان صوت الناي يعزف لحناً في مقام الصبا.

الفندق الكبير – طرابلس الماء (مايو) 1996 ف

حتى يفتح الباب

نسـيج عنكـبوت اعـتلاه السـواد ينزوي في ركن لافتة (الـرحلات الداخلـية) بمطـار طـرابلس العالمي وبقايا كيس بلاسـتيكي يـتربع أعلاه، وفي الجانب الآخر أتربة وأوساخ ... أنفـاس تـتواتر حركاتها الآلية المنتظمة... أطفال يرددون أغنية الـبكاء ... أبخرة السجائر تتصاعد لتغتال كميات الأكسجين التي يحتويها المكان... مضت ساعتان من عمر الانتظار غير المحدد الزمن ... أقدام تتحرك تحت أجسادها باحثة عن لحظة راحة ... سـيقان أنهكتها أجساد مثقلة بالهم والتعب والانتظار ..السلم الآلي يمـارس إغفاءتـه التـي دامت أشهراً.. درجات السلم الحجري اللامعة فقدت لمعانها وبريقها ... الكل ينتظر ... الكل يتأمل ... تجـوس الأعين ... تمسح الأجواء ... عيناي يصدمهما إصرار الإهمـال ... تـنقل صدماتها عبر الأوعية والشعيرات الدموية، لتستقر في قلبي ملتاعة ... إهمال ... لامبالاة ... وصمت ...

... نظـرات القلـق تجوس عبر القاعة باحثة عن نظرة وادعـة ... حالمـة ..أو بسمة صادقة ... لكنها تصطدم بأعين مصرة على معاداتها، وبشفاه تحتوي عبارات التشفي والغليل ..

فمـــا عاد الناس يبتسمون ... ولا يحملون عيونهم أحاسيس ود وصفاء .. لماذا؟؟

- تعلـــن الخطـــوط الجويـــة العربـــية الليبية عن قيام رحلتها القاصدة سبها

هكذا انطلق صوت المضيفة الأرضية فيما أعقبه همهمات مـــتفاوتة مـــن ركاب رحلة بنغازي الذين كانوا يسدون المدخل المـــؤدي إلـــى ذلك النفق الممتد حتى باب الطائرة ... البعض يضحك ساخرا ... والبعض يشتم حانقا ... فيما تعالت ضحكات ركـــاب ســـبها ... ويتكرر النداء ؛ لكن الركاب المسافرين إلى بـــنغازي يصـــرون على سدّ المدخل وكأنهم يمارسون احتجاجا صامتا على هذا التأخير.

طائـــرة بـــنغازي ستقلع الساعة السابعة، عليكم الانتظار وإخـــلاء الطريق لركاب سبها ... هذا ما قاله موظف الحركة، حانقا متعجرفا.

الكـــذب وســـيلة أخرى لتغطية العيوب .... هذا ما قاله عقلي.

عقارب الساعة تشير إلى السابعة... وأجهزة النداء أعلنت الصـــمت ... ومقهـــى المطـــار الواقع بالدور الأول عند صالة

الرحلات المحلية بدأ يمارس لعبة الصمت هو الآخر... اشرأبت الأعـــناق نحـــو عقارب الساعة، وتعالت الهمهمات بين ركاب بـــنغازي، ثـــم تجـــرَّأ أحدهـــم وطرق الباب المؤدي إلى ممر الصـــعود ... لحظة انتظار، ثم فتح الباب بعصبية واضحة ... وتساءل موظّف الحركة قائلاً:

- ألم نقل لكم أن الرحلة ستكون الساعة السابعة؟!!
- لكنها السابعة الآن ؛ فهل الطائرة جاهزة؟
- (باستغراب ردَّ الموظف) ... أحقاً هي السابعة؟!!
- والربع يا سيادة الموظف.
- إذاً ستكون الرحلة في التاسعة.
- هكذا بمزاجية تقدرون الوقت؟!!
- شئٌ لا يضحك ... عليك بالالتزام والانتظار وإلا ... .
- لكننا ننتظر هنا منذ الساعة الرابعة!!.
- لا يهَّم، إذا أردتم السفر إلى بنغازي عليكم بالانتظار.
- إلى متى؟.

هـــنا تدخلّـــت مضـــيفة أرضـــية بعد أن ساءها انتظار

المسافرين وتململهم قائلة:

- ستنتظرون أيها الإخوة حتى سفر الطائرة إلى سبها وعودتها، أي أنكم في أحسن الظروف ستستقلون الطائرة إلى بنغازي الساعة الواحدة صباحاً، فمن شاء منكم أن ينتظر فليفعل، و من رأى غير ذلك فيمكنه التصرف حسب ظروفه .

حينما سمع الركاب حديث المضيفة وأحسّوا بصدقها، انتابتهم حالة من الارتياح عبروا عنها بتنهيدة ترددت أصداؤها في جنبات صالة الركاب... بين ملل الانتظار ورغبة الوصول اقتنع المسافرون... منهم من اتخذ بعض الكراسي كفراشٍ لبدء سويعات النوم... ومنهم من حمل حقيبته حانقاً نحو مكتب الحركة لاسترداد تذكرته وتأجيل سفره... ومنهم من أخذ يجوس بين ممرات وردهات المطار... لكنهم جميعاً دفعوا ثمن كذبة صغيرةٍ بدأت عند الرابعة ظهراً، وستمتد إلى اليوم التالي من مخزونه النفسي والعصبي...

شيء واحد

(1)

... وصــلت مكتبـــي قبل بدء الدوام الرسمي بربع ساعة حـــاملاً معـــي صـــحيفة يومية ورغيف جاف... بعد أن وقعت حضـــوري، طلبت فنجان قهوة وجلست أتصفح الجريدة متنقلاً بين عناوينها... إضرابات وبطالة في الدول الرأسمالية... تشرد في بلاد المنظومة الشيوعية سابقاً... فيضانات في بنغلاديش... مجاعـــة فـــي أفريقيا... جفاف في أستراليا... لم أستطع إكمال قراءة موضوع واحد بعد العنوان، وقبل أن اختتم قراءة العناوين حضـــر نفـــر مـــن الزملاء، فتبادلنا تحيات الصباح بشكل آلي وبعـــبارة صـــلدة، بعدها تحلقنا حول طاولة أحدهم حتى محونا نصـــف ســـاعة من ساعات الدوام الرسمي ثم انصرف كل إلى مكتبه.

(2)

... قدماي مثقلتان بحالة حزن كأنها جبل على كتفي جررتهما نحو مكتبي الذي هو غرفة تعانقها الرطوبة عند زاويتها العلوية اليسرى فصار طلاؤها الأبيض بلون الرماد، وعند الزاوية اليمنى العلوية نسجت العناكب بيوتاً لها والجدار المقابل صار لوحة متصدعة، أما السقف فقد صار كرشاً ممتلئاً رطوبة، وعلى سطح الجدار الأيمن مصدر كهربائي تدلت براغيه فأبان خيوطاً كهربائية كأنها الأمعاء، أما دولاب الملفات فينوء بحمله متكئاً يميناً ومستنداً إلى الجدار بسبب نخر السوس لأطرافه ... الحالة البائسة للمكتب تعكس مأساة الإدارة العليا.

الخطوات التي قطعتها نحو المكتب أصابتني باللهاث، فتهالك جسدي على الكرسي ذي العجلات ... جلست على الكرسي وأشعلت لفافة ... المنضدة المستطيلة تدثرت بطبقة رقيقة من الطلاء المتساقط من السقف ... وبقيت أنظر إلى الملفات المكدسة على يساري، سمعت طرقات على الباب قطعت نظراتي الساهمة فأسرعت بالتقاط القلم وسحبت ورقة متظاهراً بالعمل وقلت:

- تفضل بالدخول.

لم أكمل العبارة حتى دخل مواطن قائلاً:

- صباح الخير يا أستاذ .

أجبته:

- صباح النور...

نطقـــت العبارة دون أن أرفع رأسي عن الورقة البيضاء التي أمامي والتي كان قلمي يحبرها بخطوط وأشكال مبهمة كلما داهمتني حالة مشابهة...

قال المواطن:

- لي معاملة لديكم منذ أسبوعين

... وضعت القلم جانباً ونظرت إليه مستفسراً:

- ما أسمك؟؟

... لـــم أتركه يكمل نطق أسمه حين انصرفت باحثاً في الملفَّـــات، مـــتظاهراً بالاهتمام، وبعد لحظات من الصمت التي تخللها حفيف الورق أجبته:

- ليســت جاهزة، عد إلينا الأسبوع القادم... نظر إلى الرجل

نظـــرة غامضـــة وانصرف دون أن ينبس ببنت شفة، فيما تابعـــت تقليب الملفات المكدسة، إذ ذاك تذكرت حوار ليلية البارحة:

أبي أشتر لي فستاناً جديداً.

حاضر يا أبنتي...

وحذاء كذلك...

بكل سرور...

ومحفظة للكتب.

أي الألوان تفضلين...

اللون الذي يعجبك...

حاضر.

ولا تنسَ أدوات الهندسة والدفاتر...

ستكون عندك غداً...

... ثـــم تقدمت الطفلة وحضنتني وطبعت قبلة على صفحة خدي، بعثت في نفسي وبدني كل أحاسيس المحبة التي أفقت منها إذ لســـعتني اللفافـــة فمددت يداً أطفئها، بينما كانت اليد الأخرى

تفتش أحد الجيوب، وبعد أن تخلصت من عقب السيجارة ألحقت يدي الثانية برفيقتها فصارت اليدان تجوسان في الجيوب حتى عثرت على بضعة دنانير، فتأملتهم وأنا أحادث نفس:

طلبات الطفلة تحتاج إلى عشرات الدنانير، فماذا ستقول لها إبّان أوبتك؟.

... نظرت إلى اليدين الخاويتين، ثم إلى المعاملات المكدسة وبدأت العمل لإنجازها، لكنّ حالة من الوهن انتابتني فقمت وطلبت فنجان قهوة آخر، وطفقت أرتشفه متمهلاً... وعيناي تحدقان في اللاشيء، فيما ظل حوار ليلة البارحة يواصل تداعيه رغم اللفافات المتتالية وفناجين القهوة المتتابعة... أصداء الحوار تصدع جمجمتي... أنفاسي تضيق والحجرة سجن فولاذي يقتلني... تاقت نفسي إلى التحرر من هذا السجن الذي يحتوي ذاتي... فخرجت أبحث عن شيء واحد في بلد يملك كل شيء.

الشمس والدفء

المشهد الأول

حملَ سذاجَته واتجه صوب المدينة بعد أن قالت له أمه:

كبُرتَ يا ولدي.

وقال له أبوه: صِرت عَضدي وذراعي.

وقالت له أخته: ليتك تبقى من أجل فاطمة...

كَفكَفَ دمعةً كادت تنبجس من مقلتيه وتنهد، ثم خطا خطواته صوب المدينة التى في باله.

المشهد الثاني

عقدانِ ونصف من السنين مَضت على وجودِهِ في المدينة، وها هو اليوم يَذرَعُ الشوارع والأزقة باحِثاً عن لا شئ، ساعياً إلى اللاشئ... ظل يسير راسماً خطواته فوق الأرصفةِ والطرق المعبدة... الأزقة متربِة كقريته... والشوارع مقفِرة رغم اكتظاظها بالمباني والمساكن... قال لنفسه في نفسه:

يا نفسي، لِمَ أنا هكذا ؟!!

لــم يجد جواباً لسؤاله، فواصَل سيره دونَ وعي... وبعد مســافةٍ داعبت وجههُ نسماتٌ باردةٌ فأحسَّ بالانتعاش... واَصل ســيره مستمِداً منها حيويةً ظاهرة، وبعد أن اعتلى رابيةً متربِةً طوقــتها بعــض الأعشاب الواهِنة والقمامة، ظهر البحر ممتداً أمامـــه امــتداداً ساحراً... فنظرَ إليهِ بحدقتين متسعتين مليئتين بالدهشـــة... فــلأول مرة منذ أكثر من عقدين من السنين يرى البحر بهذا الوضوح والاتساع... لأول مرة يحس أنه زارَهُ رغم مــروره يومــياً بقــربه معتلــياً صهوة سيارته اللامعة المترفة المــندفعة المســرعة... لأول مرة يتنفس هواءً بهذا القدر وهذا الــنقاء... حين لامس حذاؤه حبيبات الرمل الناعمة أحس بلهب يســري في قدميه... أسرع دون وعي ورمى الحذاء فوق أول صخرةٍ قابلته ثم بدأ يتمشى حافياً متحسِساً خشونة حبيبات الرمل على قدميه الناعمتين... وبعد خطواتٍ خطاها، ضاقت

أنفاسه وشعر بأن هماً ثقيلاً يرزحُ بثقلهِ على كاهِلهِ، فقرر إزاحــته حيــنما أســرعت يدهُ نحو ربطة العنق لتفكها، وشعرَ براحةٍ عندما استقرت الربطة في جيبِ سترته... توقفَ لِلحَظاتٍ ثم استأنفت قدماه خطاهما...

... أحـــسَّ باتساع صدرِه، وصار أنفهُ يوسِع من فتحتيه لاســـتقبال مزيدٍ من الهواءِ المؤكسج، ثم واصل سيره... ضاقت أنفاســـهُ من جديد... عندها قرر أن يتخلصَ من سترَته، وحين اســـتقرت الفكرة في عقلهِ خلعها وواصلَ مسيره مشاطئاً البحر ..مـــتلذذاً بـــبرودة المُويجات... مستشعِراً هدوءاً كبيراً اخترق كيانه... وما هي إلا دقائقَ حتى وجد نفسهُ قرب صخرةٍ ملساء بدَت وكأنها كرسيٌ بنِيَ على الماء... جلسَ فوقها بعد أن طرَحَ سترَتهُ عليها، وهكذا أصبحَ وجهاً لوجهٍ مع البحر.

المشهد الثالث

حيـــن استوى على عرشهِ الصخري، أحاطهُ البحر بدَفقٍ هـــادئٍ للموج السابحات... لمَحَ حجرةً صغيرةً مصقولةً لامعةً ازدهـــت بـــألوانٍ زاهـــية... مـــدَ يدهُ لالتقاطها، لكنه فشِلَ في الوصول إليها... تحركَ بهدوءٍ واقترَبَ منها متفحصاً، مَدَ سبابته نحوهـــا، وأخرجها من مكمنِها بين حبات الرمل المطمورةِ بماء الـــبحر... مسَحَ عليها بكفه فازدادت بريقاً ولمعاناً... وحينما همَ بالـــنهوض، رأى مجموعةً أخرى من الأحجار شبيهةً بها، فأخذ يجمعهـــا حـــتى امـــتلأت كفه... عندها فقط عادَ للجلوس على الصـــخرةِ المعروشـــةِ فوق الماء، وسهَمَ نحو البحر الذي تلألأَ

بانعكـــاس ضوء الشمس... لم يحِسَ كم مضى من الوقت وهو ساهِم، لكنه أفاقَ حين سَمِعَ صوتاً رتيباً يأتي من الجهة التي عن يساره، وحين تابعت عينه أذنه، رأى قارباً صغيراً يقوده نورسٌ ويجدِّف بمجدافيهِ رجل... التفتَ نحوه... فلما اقتربت النظرات كان للبسمةِ إيقاعها على وجه الإنسان الذي امتلأت رُؤاهُ ورِئتاهُ بهـــواء الإنســـانية المشـــترك... إنسرَبَ القارِبُ يقودهُ النورسُ ويجـــذِفُ بمجذافيهِ الإنسان الذي حمل وجههُ المودة والصفاء... رمى المتعرش على الماء ،الحامل للحجرات اللامعة المصقولة إحداهـــا خلـــف خط إنسراب القارب... فصنعت حلَقةً تمركزت حول الحجرة... أعجبهُ تتابع الدوائر فوق رَهوِ الموج... وهكذا صارت الدوائر تتكاثر حتى أنهى رمي الحجرة السادسة، عندها هَمَسَ الرجل للبحر:

- أريـــدُ أن أكـــونَ كبـــيراً بحجمك... متسِعاً كأفقك... عميقاً كعمقك... فماذا أفعل.

لـــم يجِـــب الـــبحر، بل صَفَقَت أمواجه الرهوة الصخرة المعروشة فوق الماء... رمى الحجَرة السابعة وكرر السؤال:

- أريـــدُ أن أكـــونَ كبـــيراً بحجمك... متسِعاً كأفقك... عميقاً كأخاديدك... فماذا أفعل ؟؟؟

... همســـت الأنســـام للنوارس... فقال نورَسٌ حَطَّ قربَهُ على الصخرة المعروشة، ناظِراً إليهِ بمحبةٍ وألفة:

دَعِ النوارِسَ تحلِقُ في فضاء البحر.

ثـــم همست الأنسام للسمَيكات... فاقتربت مجموعةٌ منها من قدميهِ عند الصخرة المعروشة وقالت له:

- دَعِ الأسماكَ تستمتِع بضوءِ الشمسِ والدفء...

وردتان

المشهد الأول

منضـــدة رخامية مستديرة فوقها مزهرية صغيرة حجمها لا يـــتجاوز حجـــم قبضة اليد... المزهرية بها وردتان وبقربها وعاء للسكر... الإنسان قطف الوردتين ووضعهما في المزهرية الموضوعة فوق المنضدة... الوردتان متفتحتان حتى الذبول... الوردتـــان ميتتان وعيناي ساهمتان تتأملان تويجي الوردتين... توحدٌ مع ذاتي يحتويني وسط الجموع التي تحيط بي... خاطري منكسرٌ وجناحي مهيضٌ

وموعـــدٌ ينتظرنـــي قاب ساعةٍ أو أقل... آهةٌ تخرجُ من قلبـــي فأخـــنقها، ودمعـــةٌ تعصى عن الانحدار... لكنما بسمتي الباهـــتة ترتسمُ بإصرارٍ فوق وجهي... يزيغ البصر إلى عوالمَ لا مـــنظورة لغـــيري... غير محسوسة لسواي... والجدل سيد الموقف في عوالمي تلك ...

"جدليةٌ أولى"

- ما غاية وجود هاتين الوردتين الميتتين.

- أن تستنشق عبيرهما وتريح نفسيتك المجهدة .
- وهل يرتاح الإنسان لرؤية الموت ؟!
- بل يشمئز لمجرد الحديث عنه .
- إذاً، كيف أرتاح لرؤية وردتين ميتتين؟!
- العين ترتاح إذ ترى الورد في المزهرية .
- وتـــرتاحُ أيضاً لرؤيته في الخميلة والحقل والبستان وبراري الأرض ..
- الأنف يستنشق أريج ورد المزهرية ..
- ويستنشقه أكثر في التربة الأم... في موطنه المملوء ضوءاً وماءً وهواءً... حيث التجذر في حبيباتها .
- وماذا يضع ؟
- الصناعي أجدر بالصناعي .
- بالوردة يكتمل جمال هذا الركن ..
- النحلة تحتاج الوردة لاستمرار حياتها...

- النحلة حشرة .!

هي كائن حي .

- يمكنها العيش في براحها الواسع .
- كلما قطفنا زهرةً ازداد تصحر البراح وماتت النحلة .
- فلتمت النحلة .
- هل تحتملين رؤية ميت؟ حتى وإن كان هذا الميت نحلة؟!!
- ولماذا نحرم النحل من جمال الوردة؟ ثم لماذا نحرم الوردة من موطنها ؟!!
- الـــنحلة حشـــرة... أمـــا الوردة فسنمنحها موطناً نسقيه ماءً وسماداً ونبقيها أمام أنظارنا ..
- هل هذا عدل ؟؟!
- هل تحدثت عن الظلم ؟
- بلى... إنكِ تمارسينه يا نفسي

دقات ساعة المكان تذكرني بما كان قابَ ساعةٍ أو أقل..

المشهد الثاني

الموعـــد الـــذي ضــــربته مع الإنسان أفاقني من غيبوبة الحـــوار... وحرمني لذة الانغماس في الجدل الرصين لتحملني قدمــــاي حيث الشارع... الوجوه شاحبةٌ والنفوس كدِرةٌ واللهاث سيد الموقف... قدماي تغادرانني...

بضـــع دقـــائق من مغادرة المكان... أسلم جسدي لأربعة أقـــدامٍ ميتة... أصير رجلاً بأربع أرجل ويدٍ واحدة... وتصير أطرافـــي خمـــس دوائر تحرق ناراً وتنفث دخاناً شاحب اللون خانقـــاً... ثـــم تـــنطلق أطرافـــي الدائرية الخمسة بجنون النار والدخـــان فأتذكر الوردتين ويحيلني رأسي الدائري إلى غيبوبة البصـــر والبصـــيرة... حيث عوالمي غير المنظورة لغيري... غـــير المحسوسة لسواي... يسودني الجدل مهيمنا على كياني، فتخرج ((آهتي)) كمن يصعد في السماء والدمع يترقرق في المقلتيـــن عصـــياً عـــن الخروج... وفي عوالمي تلك تأسرني الدوائر الخمس في جدليتها... جدلية الورد .

"جدليةٌ ثانية"

الـــوردة دائرية الشكل، تناظرها وردة... أطرافي الخمسة دائرية تناظرها أطرافي الأربعة... أتأمل الشكل الدائري فيصير

شبه دائري، ثم يصير بيضوياً كما الكون...

تنتابني قشعريرة الرهبة حينما أتذكر قوله تعالى:

((والأرض بعد ذلك دحاها)) .. الله أكبر ..

- لماذا تدور الحياة دورتها الكونية بهذه الكيفية ؟؟

- كيف ؟؟!

- شكل الخلية دائريٌ غالباً، وهي أساس الكائن الحي .

- ما العلاقة بين هذا والوردتين ؟!!

- كانـــتا ضـــمن شـــجرةٍ مازالت قائمةً على جذعها... فوق جذورها.

- ما الغرابة في ذلك؟!

- صيرورتهما في هذه المزهرية اغتصابٌ لحياتهما وحريتهما.

- كانتا ستذبلان ثم تموتان فوق جذعهما ..

- هما الآن كذلك بعيداً عنه .

- وردتـــان... أريجهمـــا فـــي الوطن أقوى، وتوهج جمالهما أعظـــم... وفـــي لحظـــة الموت، لن نحس بذلك، لأن جذع الشـــجرة سينبت براعم على القاعدة... وسيصير كل برعمٍ

ســـاقاً، فكأســـاً، فتويجاً... ومثلما انتهتا ستبدأنِ من جديد... وهكـــذا تمتلئ الربى وروداً... وكل الوهاد ستملؤها الورود فرحاً بحرية الحياة ومنطقية التولد والميلاد ..

وستصـــرخ الـــورود بـــأعلى صوتٍ سيتردد صداه عبر الموطن والوطن:

أيها الإنسان كن حراً... ترى الوجود حراً...

الفهرس

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية

دار قبـــاء الحديثـــة

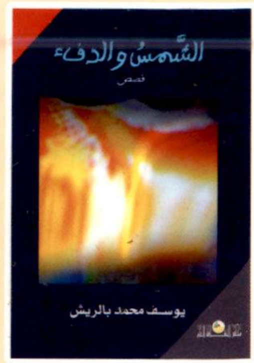
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

جمهورية مصر العربية

16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر

تليفاكس 02/22621365 - محمـــول 15 03 314 012

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام